الباب الثالث

صور مختلفات عن :
مشهد واحد

عزيزى القارىء :

فى هذا الباب رأيت أن ألتقط صوراً مختلفة ومن زوايا متعددة أضمها ضمن إطار واحد ، ينتقل فيها النظر من صورة إلى صورة ، وتلك الصور فى مجموعها تكوّن مشهداً واحداً إذا نسقت مع بعضها البعض وتعطى كل منها منظراً مستقلا إذا فصل بعضها عن بعض .

وهى عند جمعها تنسجم انسجاماً كاملا ، وتتسق اتساقاً تاماً مع الصورة الكاملة التى وضع الكتاب من أجلها وهى ولا شك تملأ منه فراغات ، وتسد فيه فجوات ربما كانت فيه بين بعض الفصول أو أثناء الفصول .

ومهما كان الأمر فإن الصورة الكاملة الواضحة فى ذهنى التى أردت أن أعرضها على القارىء الكريم بوضعى لهذا الكتاب لا تتم إلا بهذا الوضع .

obeikandl.com

الإباضية فى الجزائر

قد كنت وجهت إلى شيخنا الفاضل أبى النهضة الجزائرية وشيخ صحافتها السؤال الآتى :

ما هى المواطن التى كانت عامرة بالإباضية فى عهد الدولة الرستمية وما بعده ؟

وقد أجابنى رحمه الله إجابة مسهبة ، وذكر مواطن الإباضية فى كل من ليبيا وتونس والجزائر. وخلاصة ماذكره عن الإباضية فى الجزائر مايلى:

« أما فى عهد الدولة الرستمية فإن الخريطة التى وضعها الأستاذ محمد على دبوز كافية فى بيان الغرض ، وأما فيما بعد ففيما يلى :

١ ـ وادى سوف .

٢ ـ وادى أريغ .

٣ ـ وادى ميزاب .

٤ ـ باغاى .

٥ ـ جبل أوراس .

٦ ـ الزاب .

٧ ـ وارجلان .

وقد وجهت نفس السؤال إلى شيخنا الفاضل الشاعر الأديب باكلى عبد الرحمن بن عمر فأجابنى إجابة مسهبة فيها كثير من التفصيل وخلاصة ما ذكره :

« المواطن التى كانت آهلة بالإباضية فى القطر الجزائرى هى :

١ ـ الزاب .

٢ ـ وادى أريغ .

٣ ـ وادى سوف .

٤ ـ تاجريت .

٥ ـ وارجلان .

٦ ـ آجلو .

٧ ـ الرمال وهو موطن لا يبعد كثيراً عن سوف .

٨ ـ جبال بنى مصعب .

٩ ـ مثليلى .

١٠ـ الأغواط .

١١ـ المنيعة أو « القليعة » .

هذا خلاصة ماقاله الشيخان المؤرخان الكبيران. ولا شك أن الكاتب الذى يريد أن يترسم خطا الإباضية فى الجزائر ، ويتتبع آثارهم من حيث العلم والخلق والدين ـ يجد آثاراً منها فى كل ناحية من نواحى الجزائر فقد كانوا منتشرين فى جميع المغرب الإسلامى وفى الأندلس أيضاً .

غير أنهم اضمحلوا فى بعض الجهات بسرعة ، واستقروا فى جهات أخرى لعوامل سياسية غالباً . كما أنهم كانوا يكونون كل السكان أو أغلب السكان فى بعض الجهات . ويكونون أقليات أو أفراداً فى جهات أخرى ولا شك أن الأعداد الوفيرة منهم إنما كانت تستقر فى المناطق الوسطى

الأقرب إلى الجنوب فى تونس والجزائر والمغرب. ورغم أن التكتل الكبير لهم إنما كان فى تاهرت حيث أسسوا الدولة الرستمية وهى فى الجانب الغربى الشمالى من الجزائر إلا أن هذا التكتل لم يطل به الأمد بعد انقراض الدولة الرستمية سنة ٢٩٦ فقد جد حكام الدولة العبيدية فى القضاء على جميع من يتبع المذهب الإباضى وينتسب إليه لأنهم يرون أن الإباضية أشد فرق الأمة معارضة لبدعهم، ونقداً لتصرفهم وغلوهم وإظهاراً لانحرافاتهم. وتحت ضغط أولئك الحكام وقسوتهم تفرق الإباضية من تلك المنطقة، وشردوا إلى جميع الجهات وقد كان اتجاههم إلى الجنوب الشرقى أكثر من اتجاههم إلى النواحى الأخرى.

وبهذا السبب تكتل الإباضية فى الواحات مثل وارجلان وسدراته ووادى أريغ ووادى سوف وغيرها من الواحات الواقعة فى خطها مثل بغاى وجبال أوراس والزاب ووادى ميزاب ثم فى بلاد قصطيلية فى القطر التونسى وما ولاها إلى الشرق والشمال.

وعاش الإباضية فى جميع هذه الأمكنة دون أن يكونوا لأنفسهم كياناً سياسياً أى (دولة) أو يدعوا إلى تكوينه. وإنما كانوا يعيشون تحت نظام العزابة الذى تحدثنا عنه فى فصول سابقة. ويحمل هذا النظام جميع مزايا الحكم الشورى الإسلامى ماعدا منصب الخليفة أوالإمام. والأحكام الخاصة به والتى لا يحق لغيره أن يقوم بها. على أن الأحكام الخاصة بالخليفة نفسها كثيراً ما يقوم بها مجلس العزابة. ويكلف شيخ الحلقة بتنفيذها أو ينفذها أعضاء المجلس أنفسهم. كإجراء بعض العقوبات التى لا تبلغ الحدود كالأدب والنكال والتعزير وكإصدار الأوامر وقيادة الجموع فى حالات الدفاع وكعقد

الاتفاقيات، وذلك عندما لا يكونون تحت سلطان دولة مسلمة . ويكون قيام مجلس العزابة بمثل هذه المهام أيسر عليهم حين تكون بلادهم غير خاضعة لدولة قائمة أو تابعة لها سياسياً . فهى فى تلك الأحوال تشبه أن تكون جمهورية مستقلة رئاستها العليا بيد مجلس العزابة ـ وقد بلغ من المجلس فى بعض الأحيان إلى أن صدر له عملة نقدية خاصة[1] .

ولكنه فى جميع الأوقات لا يعلن عن نفسه كدولة ، ولا يدعيها ، ولا يقبل هذا الوصف ممن يسبغه عليه ، ولا يباشر الأحكام التى يباشرها باسم الحكام وإنما باسم مجلس العزابة .

أما القوة التى استطاع بها هذا المجلس أن يقود المجتمع بنجاح وأن يفرض بها طاعته على الناس ، وأن يكسب احترامهم لأحكامه فهى :

١ ـ استقامة أعضاء المجلس ونزاهتهم وحسن سيرتهم وسلوكهم ومحافظتهم على الدين محافظة كاملة فى جميع الأحوال .

٢ ـ قوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى كان من ثمرتهما الولاية والبراءة الشخصيتان ـ حسب قواعد المذهب الإباضى ـ وبحكم البراءة هذا استطاعوا أن يغلوا أيدى الناس عن ارتكاب المحظور ، وتجاوزوا المحظور الشرعى إلى المحظور الاجتماعى أو المحظور العرفى . وبذلك استطاعوا أن يحافظوا فوق محافظتهم على الدين وأحكامه وآدابه على مجموعة من العادات الحسنة وأنواع السلوك الذى يتمشى مع روح الإسلام وإن لم تضبطه نصوص . وأن يحافظوا على الروابط المتينة بين الناس . وعلى ماتعارفوا عليه

---

(١) أخبرنى بذلك أستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبد الرحمن وكفى به حجة .

من الآداب والسير فى جميع مرافق الحياة . وأن يحولوا دون تسرب العادات السيئة فى المجتمعات الأخرى إليهم .

٣ ـ الإسراع فى علاج المشاكل عند ثورانها وعدم تركها حتى تستفحل، ثم المساواة بين جميع الناس مهما اختلفت أقدارهم فى إجراء الأحكام فلا أحد يطمع فى أن يرتكب ما تجب به البراءة ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه. كما أنه لا أحد يطمع أن يرتكب ما تجب به الخطة أو الهجران ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه . والبراءة لا تكون إلا على ارتكاب المعصية التى تسقط بها الولاية .

أما الخطة والهجران فقد توقعان على من يخالف العرف العام للبلد أو الاتفاقات المعمول بها تحت رعاية العزابة . أو مخالفة السلوك المتبع فى قضية من القضايا وبهذه الاعتبارات فإن الهجران نال كثيراً حتى من كبار العلماء .

أما البراءة فلا تقع إلا على من سقطت ولايته بارتكاب كبيرة .

ولا شك أن هذا النظام ـ ما بين سنة ٢٨٦ تاريخ الهزيمة التى استوحى منها العالمان الكبيران : البغطورى والونزيرفى أصول هذا النظام متمثلة فى الإعراض عن الجوانب السياسية الظاهرة والاهتمام بالجوانب الداخلية التعليمية والسلوكية . وبين سنة ١٣٨٦ وهو تاريخ كتابة هذا الفصل ـ قد تطور تطورات كثيرة . فقد كان فى مبدأ الأمر فكرة ثم سيرة ، ثم عرفاً ولا شك أن الإمام الجليل أبا مسور يسجا قد عرف هذا الاتجاه من علماء الجبل عندما كان يدرس فى مدينة شروس على أستاذه العظيم

أبى معروف فلما رجع إلى جربة وقد كان الإباضية بها أقلية ضئيلة وأكثر السكان إما خلفية وإما نكارا (١) .

جد فى التعليم والدعوة حتى اقتنع أكثر الناس بما يدعو إليه وانصرفوا عن التفكير فى موضوع السياسة إلى التفكير الجدى فى تنظيم يكفل لهم سعادة الآخرة وكان ولده أبو زكرياء فصيل ـ وقد أصبح قدوة وإماماً لجميع الإباضية فى الجنوب التونسى ـ قد شغل فكره بصياغة مواد ذلك التنظيم فى وثيقة مكتوبة يمكن أن توزع على جميع مناطق الإباضية فى المغرب ولكنه مع ذلك لم يخرج هذا العمل من حيز الفكرة إلى حيز التطبيق فلما جاء أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائى لاستكمال دراسته ـ وكان قد عرف هذا الاتجاه عند علماء الجبل وهو يتلقى العلم عن مشائخ بلده فرسطاء ومنهم والده الذى قال عنه أبو العباس الشماخى فى السير صفحة ٣٨٤ ما يلى :

« ومنهم الشيخ الإمام المتقن بكر بن أبى بكر النفوسى الفرسطائى أخذ العلم من ابن ماطوس سليمان وقد تقدم التنبيه على بعض أخباره مع أستاذه

---

(١) قال أبو العباس الدرجينى فى كتابه (الطبقات) : وقد كانت الجزيرة حينئذ ـ أى حين كان أبو مسور يدرس فى الجبل ـ ليس فيها أحد إلا على مذهب خلف بن السمح ، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم ، فدعاهم أبو مسور إلى مذهب الوهبية ، فأجابه منهم من أراد الله به خيراً . وكان بها حينئذ رجل من زواغة نكارى يقال له خلف بن أحمد ، وكان ذا مال كثير ، وكان متكرما ، فكان يصنع الطعام ويدعو إليه الناس ويدعوهم إلى مذهبه فكل من من أجاب أبا مسور كان وهبيا ومن أجاب خلفا كان نكاريا ، حتى لم يبق فى الجزيرة أحد على مذهب ابن السمح بل صارت كلها تبعا لأبى مسور ، أو لخلف بن أحمد . فأقام فى الجزيرة تجتمع إليه الجماعات لطلب العلم وأخذ السير وانتهاج الطريق ، انتهى كلام الدرجينى قلت : وطلب العلم وأخذ السير وانتهاج الطريق هى الخطوط العريضة لأصول نظام العزابة .

ابن ماطوس ويأتى تمام التعريف به فى التعريف بابنه إذ هو أشهر وإن كان هذا أقدم » .

وقال فى صفحة ٣٩٢ فى ترجمة ابنه محمد ما يلى :

« ودارهم معدن العلم قديماً من أبيه وجده ، وجد جده على ما أظن وقد تقدم أبوه ولكنهم دونه فى الشهرة » .

عندما جاء أبو عبد الله إلى جربة تدارس الموضوع مع أستاذه أبى زكرياء فصيل وحددا ـ فيما نظن ـ بنوده ولكن مع ذلك لم يتم تنسيقه فى جربة فلما انتقل أبو عبد الله إلى مناطق أريغ أرسل أبو زكرياء إليه ولديه للتعليم ثم للتحريض على إنجاز المهمة وعكف أبو عبد الله فترة من الزمن على تحريره حتى أخرجه فى الصورة المعروفة المنقولة عنه تحت اسم (نظام الحلقة) قال الدرجينى فى الطبقات ما يلى :

« وسبب ذلك ومبدأوه أن الشيخ أبا زكرياء ، وجه ولديه زكرياء ويونس وابن أخيه أبا بكر بن يحيى وغيرهم من أقاربه فى جماعة وقال لهم : اطلبوا أباعبد الله فحيثما وجدتموه فلازموه واقرأوا عليه وحيثما كان فكونوا معه ولو فى شغل دنياه » .

وقال بعد سطور :

« فلما وصلوا تتجوس وافق وصولهم إليها قدومه من القيروان وقد حصل ما كان يفتقر إليه من علم اللسان » .

وقال بعد أسطر :

« فلما ألف الله شملهم بأبى عبد الله ، أعلموه بما جاءوا فى طلبه وألقوا

إليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة ، وما وصاهم عليـــه الشيخ أبو زكرياء ، وأكد عليهم فى أن يـكون ، ورغبوا إليـه فى أن يجلس لهم ويرتب لهم الحلقة » .

وقال بعد سطور :

« ثم انتقل أبو عبـد الله وتلامذته إلى « تينيسلى » فرتب بهـا الحلقة وشيد من كريم البنيان ما يقشبث به العزابة ويتشبهون به الآن ، وإن كان الناس قد فسدوا ، وفسد الزمان .

فهذا سبب قعود الحلقـة المبـاركة ، الصادرة عن أكرم مشاركة بين الشجرتين الطيبتين : المسورية والبـكرية بخطبة وإجابة كانتا فى الله فتولدت بينهما هذه الأنوار البهية ، فلنذكر لمعـاً من الآداب التى جعلهـا قوانين . وصيرها جميعاً مسالك سبل العلم والدين . وكان انتقال الشيخ أبى عبد الله إلى أريغ سنة ٤٠٩ (تسع وأربعمائة) ولذلك يسمى الغـــار الأول المذكور (القسعرى)[1] نسبة إلى هذه السنة .

ولم يبق النظام على ما سطره الإمام أبو عبد الله بن بكر ولا على ماحرره تلميذه أبو الربيع سليمان بن يخلف وإنمـا تطور مع الزمن فـكانت تضاف إليه من حين إلى آخر تنظيمات جديدة وصلاحيات جـديدة ، وتخصصات محددة لـكل قسم من أقسـام الحلقة كتخصصات مجلس العزابة وتخصصات التلاميذ (ايروان) وتخصصات المساعدين (امصوردان) على النمط الحالى الذى يجرى به العمل فى وادى ميزاب ووارجلان ، وقد حرص الإباضية فى

---

(١) كلمة القسعرى مأخوذة من (تسعة وأربعمائة) على غرار قولهم : عبدرى فى النسبة إلى عبد الدار وعبشمي فى النسبة إلى عبد شمس .

المغرب الإسلامى على تطبيق نظام العزابة بشىء من الدقة والمنافسة منذ وضعه الإمام أبو عبد الله بن بكر بل لقد حرص الإمام نفسه على تنفيذ النظام وذلك هو السبب فى كثرة رحلاته وتنقلاته حتى يرى بعينيه مدى تطبيق النظام والنتائج المترتبة عليه ، على أنهم فى تطبيقه ساروا على أساليب مختلفة اختلافات بسيطة بين جهة وأخرى وفى الإمكان إيضاح ذلك فيما يلى :

١ — فى كل من جبل نفوسة وزوارة كان يتكون مجلس العزابة — كامل الأعضاء — فى كل قرية أو مدينة ولكل مجلس شيخ . ومن مشائخ جميع المجالس يتكون المجلس الأعلى للعزابة . ومقر اجتماع المجلس الأعلى للعزابة — فى الجبل — هو مدينة جادو وقد اختيرت لتوسطها بين مناطق الإباضية فى الجبل، ولأجل اختيارها مقراً للحكم بنى فيها مسجد (امصراتن) باشتراك أهل الجبل جميعاً فى بنائه حتى تتم فيه الاجتماعات وتنعقد فيه مجالس الشورى عقب الصلوات ،وقد اشترط على جميع من اشترك فى بنائه أن يعتمد على نفسه فى نفقاته وأن لا يقبل ضيافة أحد مدة اشتغاله بالعمل حتى يكون عمله كله لله لاتدخله أية شبهة .

وهذا المجلس الأعلى هو الذى يتولى جميع الشئون الداخلية والخارجية ، وشيخ هذا المجلس يطلق عليه شيخ الجبل ، أو حاكم الجبل، ووصف فى فترات قصيرة بالأمير . وبأى وصف من الأوصاف السابقة فهو الذى يتولى تنفيذ جميع قرارات المجلس وإعلان أحكامه ، وعليه أن يتخذ قرارات سريعة فى الأحداث المستعجلة التى لا يمكن أن تنتظر إن أمكن باستشارة من حضر من عزابة قريته أو غيرهم ، أو حتى بدون الرجوع إليهم إذا كان فى الأمر ما يستدعى الإسراع ويتحتم عليه أن يقيم فى جادو مدة ما هو حاكم للجبل ،

ولا يسمح له إلا بزيارات محدودة لا تؤثر على سير العمل إلى موطنه الأصلى ، وفى فترات متقطعة .

٢ — فى جربة : كان مجلس العزابة فيها أيضاً يتولى جميع الشئون الدينية والاجتماعية للجزيرة ، وكان للجزيرة مجلس واحد ، ولكن طبيعة الجزيرة فى كونها تشبه أن تكون مدينة كبيرة جداً ذات ضواحى متعددة كانت تقتضى أن يكون أعضاء المجلس غير محدودين بالعدد المعروف لمجلس العزابة ، فقد كان توزيع المساجد يقتضى أن يتعدد الأئمة والمؤذنون والمدرسون . وهذه الوظائف حيوية فى مجلس العزابة ولذلك فقد كان عدد أعضاء مجلس العزابة يتغير تبعاً للمصلحة واحتياج الناس ويصل فى بعض الأحيان إلى ضعف عدده الأصلى أو أكثر من ذلك ، ولكنه فى جميع تلك الأحوال لا يكون له إلا شيخ واحد هو شيخ العزابة . كما أن مكان الاجتماع غير محدد فكان ينعقد غالباً فى المسجد الذى يصلى فيه الشيخ عادة بعد صلاة العصر ، وقد ينعقد فى بيته أو فى بعض المساجد الأخرى حسب الظروف والأحوال .

وفى جربة كان يوجد إلى جانب شيخ العزابة شيخ آخر يسمى شيخ الحكم وهو يستند فى جميع أموره على مجلس العزابة . وقد يستبد أحياناً فصاب الجزيرة بأفدح النكبات(١) .

وعلى هذا ففى الجزيرة شيخان ، أحدهما هو شيخ العزابة ويتولى جميع الشئون الدينية والاجتماعية باسم مجلس العزابة ، والثانى هو شيخ الحكم ويتولى الشئون الإدارية والسياسية والعلاقات الخارجية للجزيرة باستشارة مجلس

(١) راجع الإباضية فى تونس : فصل المجامع العلمية ص ٤٢١ .

العزابة أو شيخه غالباً . وفى هذه الحال يحرص المؤرخون عندما يتحدثون عن الشيخ الأخير أن يصفوه بالحكم فيقولون : « شيخ الحكم » حتى لا يشتبه على القارىء فيظنه شيخ العزابة ، وقد تجتمع المشيختان فى النادر عند شخص واحد وحينئذ تكون جربة على أهنأ الأحوال .

٣ ـ فى وادى ميزاب طبق نفس النظام الذى طبق فى جبل نفوسة مع تقليل بسيط فى صلاحية شيخ الوادى أو شيخ العزابة ، وإن كانت اختصاصات المجلس الأعلى للعزابة فى الجبل وكل ما هنالك من فرق أن شيخ العزابة فى الجبل يطلق عليه فى كثير من الأحيان اسم حاكم الجبل ، وقد يتخذ إجراء أو يصدر آراء فى شأن من الشئون المستعجلة دون أن ينعقد المجلس أو يدعوه إلى الانعقاد ، وذلك غالباً فى الأحداث الطارئة ولا سيما فى قضايا الدفاع ورد العدوان .

أما شيخ المجلس فى الوادى فهو يعلن الاتفاقات التى صدرت فى المجلس وليس له أن يصدر أمراً إلى جميع سكان الوادى دون الرجوع إلى انعقاد المجلس واتخاذ القرار فيه . وقد يعود هذا فيما يبدو إلى طبيعة البلاد فانعقاد المجلس فى الجبل تكتنفه صعوبات كثيرة كبعد المسافة ووعورة الطريق ويحتاج انعقاد المجلس إلى ما لا يقل عن أسبوع من التحضير والذهاب والإياب . ولذلك فإن الأمور التى لا تحتمل التأخير يصدر فيها حاكم الجبل أمره ويتصرف حسبما تقتضيه المصلحة العامة مع استشارة أهل العلم والرأى ممن حوله ، أما طبيعة وادى ميزاب لا سيما قبل القرارة وبريان فهى تشبه أن تكون مدينة واحدة ذات ضواحٍ ، والاجتماع فيها سهل يسير وفى مدة قريبة ، وقد فضل أهل الوادى أن يكون اجتماع المجلس فى مسجد الشيخ أبى عبد الرحمن الكرثى ثم نقل إلى مجلس عمى سعيد الخيرى الجربى .

٤ ـ فى بقية بلاد الإباضية من المغرب الإسلامى كان مجلس العزابة يطبق على طريقة فردية أى أن كل قرية أو مدينة لها مجلسها الخاص بها والذى لا يرتبط فى كل مشاكله بمجموعة من المجالس المتقاربة أو المترابطة .

ويتضح من هذا أنه بينما كان ارتباط مجالس العزابة فى كل من جبل نفوسة وجربة ووادى ميزاب لمجلس أعلى له الكلمة النافذة على جميع المجالس وشيخ واحد يتولى تنفيذ قرارات المجلس مع اختلاف بسيط فى الاختصاصات فإن بقية قرى ومدن الإباضية فى المغرب الإسلامى لم تتوحد فيها مجالس العزابة على شكل كتل حتى فى القرى الكثيرة المتقاربة كما هو الشأن فى القرى التى أشرنا إليها آنفاً وإنما كان لكل قرية أو مدينة مجلسها الخاص يتولى شئونها منفرداً دون الارتباط بمجلس القرى الأخرى أو الرجوع إلى آرائها ولا يتعدى شئونها التى يشرف عليها ويتولى قيادتها .

ومع ذلك فإن الأحكام التى يصدرها أى مجلس عزابة فى أية قرية من تلك القرى على شخص من الأشخاص بالبراءة أو الهجران كان يجد صداه فى جميع الأماكن الأخرى . وتتجاوب جميع المجالس فى ذلك لا يخل واحد منها بالحكم ولا يستطيع المحكوم عليه أن يلتجىء إلى بلد آخر ليزيح عنه حكم الهجران إلا بعد أن يعلن التوبة ويتنصل من التبعة إن كانت عليه تبعة وقبل منه العزابة فى ذلك المكان أو غيره ، ويتلخص من هذا أن مسلك الإباضية بالنسبة إلى مجلس العزابة كان على نمطين الأول تكتل عدد من المجالس لعدد من القرى تحت مجلس أعلى . والثانى انفراد كل قرية بمجلس مستقل .

وقد أدى نظام العزابة فى البلاد التى اتبع فيها النمط أو الاتجاه الأول (الارتباط بين المجالس) إلى حفظ مجتمع له خصائص الدولة الصغيرة ماعدا الاسم . وساعد على تكوين مجتمع متماسك ذى خصائص واضحة حافظ

عليها وحافظت عليه رغم جميع المؤثرات الخارجية ، كما أنه منح القوى المشتركة فى المجلس العام والتابعة لنفوذ شيخ واحد توحيداً فى القيادة ، وقوة جماعية لمكافحة عوامل التفكك والتحلل والذوبان ، وجعلت ذلك المجتمع أقوى على الصمود والدفاع كما أنها قللت من مطامع الغير فيه ومحاولة استغلاله بالعنف والقوة .

أما القرى والمدن التى اتخذت الاتجاه الثانى (انفراد كل قرية بمجلسها) فإن العوامل الخارجية سرعان ما أثرت عليها ، ولم تصمد لها طويلا رغم المواقف العنيفة والحركة النشيطة الدائبة فى حفظ مجتمع ذى خواص متميزة داخل قرية أو مدينة واحدة منفردة .

وبناء على ذلك فقد استطاعت العوامل التى كانت تستغل الخلاف المذهبى أن تغير المذهب فى تلك القرى والمدن ـ ما عدا وارجلان وزوارة ـ وأن تتغلب عليها تارة باسم الدولة ، وتارة باسم الدين لأنها تناولتها عن عن طريق الانفراد لا عن طريق الجماعة . ولعل أغلب الأحداث التى أدت إلى تغير المذهب الإباضى بغيره من أغلب البلدان إنما كان مبنياً على أحداث فردية أكثرها كان مفتعلا يقصد منه تغيير المذهب . يمليه أحد أمرين : تعصب مذهبى، أو مكر سياسى. ولعل العصر الحاضر ـ رغم التسامح وكفالة الحريات ـ يحمل صوراً من ذلك استجابة لرغبة متفقيه متعصب، أو متزعم متسلق ، أو حاسد يرى خيراً عند غيره ولا تطوله يداه .

تجمعات إباضية فى الجزائر

كان أغلب السكان فى الجزائر على المذهب الإباضى[1] لاسيما فى الوسط والجنوب طيلة القرنين الثانى والثالث وكان أكبر تجمع لهم وأقواه فى تاهرت وما حولها . وعلى هذه الكثرة تأسست الدولة الرستمية . وبقى هذا التجمع على كثرته إلى أواخر القرن الثالث حين تغلبت الدولة العبيدية على الدولة الرستمية ـ ولم يكن حينئذ نظام العزابة معروفاً ـ فلما انفرط عقد الدولة الرستمية وزال سلطانها وتفرق رجالها وأتباعها بقيت بعض البلدان الآهلة بالإباضية على حالها وهذا غالباً فى المدن والقرى المتطرفة البعيدة عن مراكز العبيديين والصنهاجيين من بعدهم . أما المدن التى كانت قريبة من مراكزهم وتحركاتهم فقد خرب الكثير منها ، وانتقم من أهلها . أما الأقليات والأفراد الذين يسكنون فى مدن أخرى فقد حاولت السلطة أن تجبرهم على أحد أمرين : فمنهم من اعتنق المذهب الشيعى على كره ، ومنهم من قتل أو هاجر إلى حيث يأمن بطش العبيديين .

والواقع أن المناطق الشمالية والغربية قد قل منها الإباضية بعد الدولة الرستمية وأصبحوا فيها أفراداً لا جماعات وكانوا يتناقصون يوماً عن يوم ، ولم يبق فى المدن الكبيرة التى كانت عامرة بهم إلا عائلات معدودة أو أفراد قلائل . وبقدر ما كان الإباضية يقلون فى المناطق الشمالية والغربية كانوا يكثرون فى المناطق الجنوبية والشرقية للجزائر . وعندما ينعقد

---

(١) أصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية باسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ماعدا الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية وكان المذهب العام يومئذ للبربر فى كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضى » : كتاب الجزائر توفيق المدنى ص ٢١ .

مجلس للعلماء فى إحدى الواحات الجنوبية الشرقية للجزائر أو الغربية لتونس يكون المجتمعون من أماكن شتى وبلدان متفرقة متباعدة يقص كل واحد منهم المآسى التى عاشها فى موطنه الأصلى ، وما بلغه ظلم الحكام وانحرافهم عن سبيل الإسلام . وفى المواطن الأصلية لهم قد تنقسم الأسرة الواحدة على نفسها يهاجر بعضها إلى مكان ، ويهاجر البعض الآخر إلى مكان غيره أو يقيم فى مكانه الأصلى ينتظر الفرصة لصلاح الزمن وتبدل الأيام وسيادة الحق على الباطل بسبب من الأسباب . وكثيراً ما تكون المجاذبة والأخذ والرد بين أفراد العائلة الواحدة المنقسمة على نفسها كل يدعو القسم الآخر إلى الانتقال إليه والاستقرار معه .

قال أبو العباس الدرجينى وهو يتحدث عن أبى صالح جنون بن يمريان ما يلى :

« وذكر أن ابن عم له كتب إليه من بلاد المغرب : يا ابن عمى :

إئتنى فإنك أقمت فى الأرض القفر « وارجلان » فإن عندنا أرضاً كريمة ، قدر كساء يحمِّل البعير وسقه حباً . فأجابه أبو صالح : يا ابن عمى : إئتنى فإن عندنا أرضاً . قعدةُ رجل يحمِّل البعير وسقه عسلا » . يعنى النخلة .

والشواهد على هذا كثيرة حتى أنه يعسر على المؤرخ أن يعرف مواطن العلماء الذين ينسبون إلى بلد ما أو يعيشون فيه اللهم إلا بالعزوة أو النسبة كما يقال: أبو عبد الله الفرسطائى وأبو العباس الويليلى وأبو جعفر الوسلاتى وفى كثير من الأحيان ينسب الشخص إلى القبيلة وتكون القبيلة من القبائل التى تفرعت إلى فروع كثيرة وتنتقل بين بلاد المغرب الإسلامى كلها فلا يعرف لها مقر ، ولا يعرف موطن الشخص الأصلى وإنما يعرف الموطن الذى استقر فيه من بعد وأقام .

وإنك لو تتبعت أسماء العلماء فى بعض كتب التاريخ لوجدت النسبة إلى القبيلة هى الغالبة أمثال :

المشلوطى ، والسدراتى ، واللواتى ، والمزاتى ، والزناتى ، واليهراسنى ، والزواغى ، والزرواري ، والنفوسى ، والفارسى ، والوسيانى ، والقناوتى ، واليفرنى واليروتنى ، والفسطناسى إلى آخر ما هنالك من أسماء وألقاب لمختلف القبائل والعروش ينسب إليها ، وفى أحيان قليلة يذكر المؤرخون الموطن الأصلى للعالم وينسبونه إلى القبيلة ثم يذكرون مقره الذى استوطنه أخيراً . وعلى كل حال فإن الإباضية لم يزالوا يطاردون فى جميع أنحاء المغرب ويضيق عليهم . تارة من طرف الحكام المستبدين وتارة من بعض زعماء القبائل الأقوياء المستغلين ، وأحياناً قليلة من بعض المتعصبين من المتفقهين الجامدين فكانوا يلجأون فى أغلب الأحوال إلى تلك الجهات من الواحات . يأوى المستقرون منهم إلى المدن ويأوى أصحاب الماشية إلى الوديان والتلال الخصبة فى تلك الجهات ، فتكوّن بسبب ذلك نشاط ملحوظ فى الجوانب العلمية والدينية . وبلغ بهم الحرص على التعليم وعلى العبادة إلى أن جعلوا مساجد ومدارس متنقلة[1] مع الأحياء التى تعيش على نهج البداوة ، فكان أرباب الماشية ينصبون أحياءهم متقاربة من مواطن الخصب ثم يقيمون بناء المسجد والمدرسة فيؤمه الطلبة للدراسة والمصلون لأداء الفريضة ، وقد ذكر المؤرخون أن لبعض الأحياء مسجداً متنقلا من هذا النوع يحملونه على اثنى عشر بعيراً ينصبونه فى مكان متوسط ليؤمه الناس من أحياء متعددة وقد قيل إن تفصيله شبيه بتفصيل

---

(١) يتخذون نماذج من الحصر يسهل أن يقام منها بيت أو مسجد أو مدرسة على المساحة والهندسة المطلوبة بأيسر جهد فإذا أرادوا الارتحال طويت الحصر وحملت على الجمال إلى المكان الجديد حيث تنصب بسهولة أيضا .

المساجد المبنية حيث يخصص قسم منه للنساء وقسم للمرافق . ويبدو أن الوحدة لأصحاب الماشية فى تلك الجهات إنما هى القبيلة ، ومن يندرج تحتها وينضم إليها . فتكون تلك القبيلة ومن معها تجمعاً يقيم أو يرتحل بالاتفاق وهى بذلك تقيم لنفسها مجتمعاً صغيراً تتيسر فيه عدة من أنواع النشاط فى التربية وفى التعليم وفى إقامة الشعائر الدينية كما تتكون فيه يد قوية تحمى ذلك المجتمع من عدوان الغارات . أما القرى والمدن فقد كانت كل منها تكوِّن تجمعاً خاصاً ، ويغلب أن يكون سكان القرية أو المدينة متكوناً من مجموعة كبيرة من الأسر والأفراد جاءوا إليها من جهات مختلفة نتيجة للضغط فى بلدانهم الأصـــلية . أما الرباط بين تلك القبائل أو بين تلك القرى أو بينها جميعاً ، فهو الرباط العام من السيرة والسلوك والتعاون العلمى والدينى والعطف والمحبة ، ولـكن التنظيم لم يصل بينها إلى درجة تـكوين وحدة بين مجموعة من القبائل أو مجموعة من القرى تقف موقفاً موحداً فى حالات الدفاع بنظام ثابت ومستمر .

وبينما كان جبل نفوسة بجميع قراه ومدنه يكوِّن وحدة ، وكانت جربة بجميع حاراتها وأحيائها تـكوِّن وحدة . فإن بقية بلاد الإباضية فى المغرب كمنطقة الجريد . ووادى أريغ ، ووارجلان ، وآجلو ، وتجريت لم تـكوِّن بينها هذه الوحدة . أما وادى ميزاب فقد بدأ الإباضية يتجمعون فيه بعد ذلك فى أوائل القرن الخامس . وقبل أن ينشأ وادى ميزاب كان نظام العزابة قد استقر عرفاً فى كل من الجبل وجربة ثم اتبع نظاماً مقرراً فى كل بلاد الإباضية فى ليبيا والجزائر غير أنه طبق فى الجبل وجربة على أسلوب الوحدة وطبق فى بقية الجهات الأخرى على أسلوب الانفراد كما سبقت إليه الإشارة .

وقد ذكرت غير مرة فى هذا الكتاب وفى غيره أيضاً أن هذه السيرة إنما نشأت أول ما نشأت فى جبل نفوسة ـ بعد وقعة مانو والقضاء على الدولة الرستمية مباشرة ـ من الشيخين أبى القاسم البغطورى وأبى الخير الونزيرفى. بقصد لم الشعث ، وتوحيد الصفوف وتوجيه الأمة توجيهاً سليماً فى أهم جانبين من جوانب الحياة هما الجانب الدينى والجانب العلمى .

ولكن هذه السيرة بقيت سيرة عرفية غير مقررة ولا محددة حتى جاء أبو عبد الله محمد بن بكر فجعلها قانوناً ونظاماً خاصاً يشبه أن يكون نظام جمهورية صغيرة مستوحى من شريعة الله وقد سبق الحديث عن هذا النظام فى غير هذا الجزء وكما سمعت أن الأخ الأديب فرحات الجعبيرى قد يقدم عنه دراسة وافية ممتعة . أعانه الله ويسر له خدمة الإسلام والمسلمين .

تجنب إباضية المغرب للنزاع على السلطة

عندما انحرفت الدول الكبرى عن المنهج الإسلامى فى إجراء الأحكام واتبعت أسلوباً دكتاتورياً متعسفاً ثار الناس فى كل مكان ، واتخذت تلك الثورات مختلف الأشكال والألوان والمبادىء . وسارت فى طرق تتقارب أحياناً وتتباعد أحياناً أخرى . وكان الإباضية من جملة من انتقد الانحراف فى سلوك الحكام ، وكان موقفهم فى المغرب الإسلامى لا يتعدى ـ فى بادىء الأمر ـ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقول . وكان العلماء يندون بالظلم والظالمين فى مجالسهم الخاصة والعامة ويتحدثون عن ذلك فى المساجد والمجامع ، ويكشفون للناس عن صور الانحراف عن الحق فى سلوك الظالمين ، ولما خاف الأمراء كلمة الحق وخشوا على مناصبهم أن تزلزلها الدعوة إلى الاستمساك بكتاب الله بسطوا أيديهم بالأذى ، وسلطوا ظلمهم على الإباضية ، فاستباحوا منهم المال والدم ، وحكموا سيوفهم فى رقاب بعض العلماء الأعلام فاندلعت شرارة الثورة المسلحة عليهم عندما تعدوا على العلامة عبد الله بن مسعود التجيبى دون أن يصدر منه ما يبرر العدوان عليه . فانتقل الإباضية من مرحلة النهى عن المنكر بالقول إلى مرحلة النهى عنه بالفعل ، فوقفوا فى وجوه المعتدين ، يشلون أيديهم الضاربة ، ويزحزحونهم عن كراسيهم المتحجرة ، وتكونت هذه الحركة أول ما تكونت فى ليبيا ونجحت فى مبدأ الأمر ولكن سرعان ما تألبت عليها القوى المستغلة للحكم والتى لا تريد أن يرى الناس نصاعة الحكم الإسلامى فينكشف لهم ما عليه أولئك المنحرفون من ظلم وجور وجبروت ، بعد أن كانوا يموهون عليهم بأن السلطان الذى بأيديهم إنما كان بأمر الله ، وأن ما يجرونه عليهم من أحكام إنما استمدوه

من الحق الذى وضعته الشريعة فى أيديهم ، وأنه لا حق لأحد أن ينازعهم فيه أو يحاسبهم عليه . أو يأخذه منهم ، أو يتقدهم بسببه . واستطاعت تلك القوى أن تضرب الإباضية ضربة قاضية حينما قتل أبو حاتم الملزوزى حسبما هو مفصل فى كتب التاريخ . وتأكد الإباضية فى ليبيا أنه لا يمكن لهم أن يقيموا دولة ترعى حدود الله وعن يمينها وشمالها دول تجرى أحكامها على رغبات بشرية فانتقلت الحركة إلى الجزائر ونجحت فى مبـــدأ الأمر وتكونت هنالك الدولة الرستمية ولـكن سرعان ما وجهت إليها الضربات واستطاعت رغم كل شىء أن تقيم حكم الله مدة قرن ونصف . ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت عليها كما هو مفصل فى كتب التاريخ وسار حكام الدولة العبيدية على نمط قد يكون أسوأ من غيره ، واستباحوا لأنفسهم أموال الناس ودمائهم .

بعد القضاء على الدولة الرستمية وقف الإباضية يفكرون فى المسلك الذى يسلـكونه تجاه الجورة والمستبدين من الأمراء والحكام . أيقابلون أولئك الحكام بالدعوة إلى الثورة عليهم وقلب نظام الحكام وإبعاد المنحرفين عن مقدرات الأمة مهما كانت النتائج ؟. أم أنهم يسلـكون مسلك المسالمة والمهادنة ؟. وكان أول من فـكر فى الموضوع بجدية وانتهى فيه إلى رأى هما العالمـان أبو القاسم البفطورى وأبو محمد الوسيرفى وكانا حينئذ مرجع أهل الجبل وكان ذلك بعد معركة مانو التى قتل فيها الأغالبة أعداداً لا تحصى من رجال نفوسة وتتبعوا علماءهم وصلحاءهم حتى كادوا يقضون عليهم . ولذلك فقد رأى الشيخان أنه ينبغى لجبل نفوسة أن يحتفظ بانعزاله سياسياً فلا يحتك بإحدى الدول القائمة ولا يدعو إلى ثورة ولا يشترك فيها ، ولا يقيم لنفسه حكما بجهاز دولة . وإنما عليه أن يختار هيئة من الرجال الأكفاء

تمثل الجبل بجميع نواحيه تتولى تحت رئاسة أحد العلماء شئون الجبل الدينية والاجتماعية وتنظم وسائل الدفاع إذا اضطروا إليه ، ويتولى ذلك كله الرئيس الذى يطلق عليه اسم شيخ الجبل أو حاكم الجبل ، وينفذ جميع القرارات التى يتخذها المجلس ، وهكذا استقر رأى الجانب الشرقى من إباضية المغرب الإسلامى على عدم إقامة دولة ، وعلى عدم مناوشة الدول الأخرى ومطالبتها بالتزام سلوك معين . وإنما أوجبوا على أنفسهم أن يقيموا حدود الله فيما بينهم وأن يلتزموا السير فى المنهج الإسلامى الذى سار عليه الصالحون من أمة محمد ﷺ .

أما الجانب الغربى الذى ذاق حلاوة الحكم الإسلامى تحت رعاية الدولة الرستمية فقد كان أفراد منه يتوقون إلى إعادة ذلك الحكم ولكن المفكرين منهم قد انتهوا إلى مثل ما انتهى إليه إخوانهم فى الجانب الشرقى . وكانت الدولة العبيدية عندما تغلبت على الدولة الرستمية فى تاهرت لا تخشى أحداً كما تخشى أبا يوسف يعقوب بن أفلح ولا تخشى بلداً من بلدان الإباضية فى تلك المناطق كما تخشى وارجلان فلما فر أبو يوسف متجهاً إلى الجنوب تبعته فرق من الجيش العبيدى ولاحقته بقواتها ولكن تلك الفرق لم تتمكن منه حتى قرب من وارجلان وعندئذ أمرت بالتراجع خوفاً من الاصطدام بأهل وارجلان وإثارتهم فرجعت دون أن تبلغ ما تريده من قتل أبى يوسف أو أسره أو الحيلولة دونه ودون الوصول إلى وارجلان .

كان مع أبى يوسف جموع من الناس الذين هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد تلك الأحداث المؤلمة فعرضوا على الإمام يعقوب أن يبايعوه إماماً عليهم يقيم فيهم حكم الله ويحارب بهم عدوه فقال لهم : « افترقوا فقد انقطعت أيامكم . وزال ملككم فلا يعود إليكم إلى يوم القيامة . ولا اجتمع

منكم ثلاثة إلا وقع عليهم الطلب » . وبلغ الرجل العظيم المدينة العظيمة وارجلان ، وكانت وارجلان وما يجاورها فى ذلك الحين مأرزاً وملجأ للإباضية ولهم فيها قوة وصولة فعرض عليه أهلها أن يبايعوه بالإمامة ، وأن يحاربوا تحت لوائه حتى يقيموا دين الله ولكن أبا يوسف قال لهم قولته المشهورة التى ذهبت مثلا « الجمل لا يستتر بالغنم » وهكذا اتحدت الفكرة عند كبار رجال الإباضية فى المغرب الإسلامى على اعتزال السياسة وتجنب الاحتكاك بالدول القائمة وعدم القيام بتأسيس دولة جديدة .

ترك الإباضية فى المغرب الإسلامى الحكم لطلاب الحكم يتهارشون عليه . أما هم فقد رجعوا إلى داخل نفوسهم يطهرونها وإلى أعمالهم يزكونها وإلى مجتمعهم يحاولون أن يقيموه على أسس متينة من شريعة الله .

ولقد تهيأت ظروف الثورة لهم على بعض الدول وتيسرت لهم الأسباب لإقامة دولة جديدة فى بعض الأحيان ولكنهم لم يشاءوا أن يشغلوا أنفسهم بذلك ولا أن يتطلعوا إليه . ولعل من أبرز الشواهد على ذلك ما كان عليه الإباضية فى عصر أبى القاسم يزيد بن مخلد وذلك فى عهد المعز لدين الله الفاطمى . فلقد واتت الظروف أبا القاسم واجتمعت الإباضية وغير الإباضية على حبه وإطاعة أمره وكان لهم من القوة المادية ما يكفل لهم الفوز ، وعرض كثير من الناس الأمر على أبى القاسم وطالبوه بقبول البيعة ولكنه رفض لأن رأيه كان مثل رأى البتغطورى وابن الخير ويعقوب بن أفلح . فكان يرى أن التعلق بالحكم لا يهم ، وأن المؤمن يستطيع أن يحافظ على دينه دون أن يكون صاحب سلطان . وأن ما تعطل من شريعة الله فإنما يحاسب عليه أولئك الذين أمسكوا بالسلطة فى أيديهم فلا هم أقاموا فيها أمر الله

ولاهم تركوها لمن يقيمه فيها . وأنه ينبغى للإباضية أن لا يزيدوا الأمة فتناً على ما بها من فتن تتخذ وسيلة لاستحلال الدماء والأموال وإنما عليهم أن يقيموا الإسلام فى أنفسهم ، فمن كان منهم مستقلا مثل جبل نفوسة ، فعليه أن يقيم أحكام الإسلام ويراعى حدوده دون أن يعلن اسم دولة . ومن كان منهم خاضعاً لدولة قائمة مثل إباضية تونس والجزائر ، فعليهم أن يخضعوا للدولة ، وعليهم أن يدفعوا لها ما تطلبه منهم من الضرائب والغرامات ، وأن يجاهدوا معها أعداء الله إذا وجهت جيوشها لمحاربة الكفار والمشركين . وعليهم أن يقوموا هم أنفسهم برعاية مصالحهم الدينية والاجتماعية ، وأن يفصلوا منازعاتهم حسب الأصول الشرعية ، وأن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن مساعدة الدول القائمة فى جميع ما ترتكبه من ألوان الظلم الذى تنزله على الناس ، وأن لا يشتركوا معها فى أى حرب ضد المسلمين وفى بلاد الإسلام .

وسار الإباضية على هذا المنهج فى أول أمرهم دون أن يجعلوا لذلك كتباً أو قوانين يرجعون إلى موادها . وإنما يطبقون أحكام الإسلام فيما أمكنهم من حقوق الله وحقوق العباد . حتى ضاق المعز لدين الله الفاطمى ذرعاً بأبى القاسم بن مخلد ، وخشى من محبة الناس له ، وإقبالهم عليه . وطاعتهم لأوامره . فأمر عامله فى (الحامة) أن يغتاله فاستزار العامل أبا القاسم واغتاله فى منزله نفسه . وكان هذا الاغتيال دون جريرة سبباً فى ثورة عارمة قام بها بعض أصدقاء[1] أبى القاسم وبعض تلاميذه وأتباعه . جعلت المعز يترنح فوق عرشه ، ويتنازل عن كبريائه ويعرض الصلح على أولئك الثائرين

---

(١) عارض القيام بالثورة عدد من علماء الإباضية من أشهرهم أبو صالح اليهراسنى وأبو محمد وسلاتن .

ويتنازل لهم[١] عما كان تحت أيدى الإباضية فى عهد الدولة الرستمية من البلاد فلم يقبلوا بذلك ، لأنهم لم يثوروا طلباً للملك ، وإنما ثاروا محاربة للظلم والجبروت .

ولما سكنت تلك الثورة ورجع الناس إلى حياتهم العادية كان أفراد من رؤساء القبائل وزعماء العشائر يعدون للقيام بثورات أخرى . ويهمسون بذلك فى مجالسهم الخاصة ، وفى الاجتماعات المأمونة ، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر .

استبعد الإمام أبو عبد الله فكرة الثورات والحروب والقيام بدولة ومحاربة الحكام من أذهان الناس استبعاداً كاملا . واتجه بالمجتمع الإباضى اتجاهاً خاصاً هو الاهتمام بالنفس وبالمجتمع . دون الاهتمام بالدولة وحوّل سيرة الإباضية بعد وقعة مانو من عرف جرى عليه الناس وعادات استحسنوها وتمسكوا بها إلى حيز الدراسة والبحث العلمى ثم التقنين وألف فى الموضوع وجعل ذلك دستوراً فى مواد وقوانين . فنظم حلقة العزابة كما ذكرنا من قبل وحدد فيها اختصاصات الهيئات واختصاصات الأفراد . واعتنى عناية خاصة بقضية التربية والتعليم . وجعل لذلك منهاجاً . أعتقد أنه منهاج فذ فى نظم التربية والتعليم . ومما يتضمنه ذلك المنهاج توحيد زىّ الطلبة ، وتوحيد زىّ المدرسين ، وتنظيم أوقات الدراسة ، وتخصيص كل وقت لما يناسبه من المعارف ، وإدخال الآداب الإسلامية والقيام بالعبادات الدينية فى قلب

---

(١) قال الدرجينى فى الطبقات : فأرسل — أى المعز — إلى المشائخ أن ارجعوا إلى بلادكم التى كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم ، ونكون على ما كان عليه أوائلنا .

النظام . بحيث تكون مواد أساسية فى المنهاج الدراسى وتخصيص أوقات للتربية العملية فى حل المشاكل وحسن التصرف وإدارة الأمور والسلوك الحسن بين المجتمعات المختلفة وفى البيئات المختلفة . كما أنه أعطى قيمة خاصة للفروق الفردية بين الطلاب ، وأوجب احترام شخصية الطالب المتخلف ذهنياً ومراعاته ودراسة ظروفه حتى لا تتكون فيه الأمراض التى تسمى اليوم (العقد النفسية) وبالجملة فإن الإمام أبا عبد الله هو الذى حوّل بطريقة عملية مجرى تاريخ الإباضية فأبعدهم عن التهارش على مناصب الحكم الدنيوى والنزاع على السلطة ، ودعاهم إلى تنظيم حياتهم تنظيماً إسلامياً يلتزمون فيه أحكام الله على الفرد وعلى المجتمع .

ومنذ ذلك الحين تخلى إباضية المغرب عن التفكير فى موضوع الحكم وساروا بنظام العزابة فى وحدة متكاملة متعاونة محافظة على دين الله حريصة على اتباع سيرة المحسنين من السلف وفى العهد التركى الأخير بدأ إباضية جبل نفوسة وجربة يتخلون عن ذلك النظام الرائع حتى تركوه تماماً فأصبحوا يعيشون فى مجتمع واحد لكن دون رباط ولا منهاج إذ فقدت الدولة المسلمة التى تحمل الناس على السير فى الجادة . وأضاعوا النظام الذى كفل لهم حياة إسلامية نظيفة أكثر من خمسة قرون . فابتعدوا بسلوكهم عن الإسلام كما ابتعد الكثير من غيرهم .

أما إباضية الجزائر فقد حافظوا عليه إلى اليوم فحفظ عليهم وحدتهم واستقامتهم وتميزهم على بقية المجتمعات الإسلامية ، وفى وادى ميزاب وفى وارجلان أمثلة رائعة لأمة مسلمة محافظة على دين الله قائمة به ، إذا شذ منها فرد فارتكب ما يخالف تعاليم الإسلام أو آدابه نبذه المجتمع

وقاطعه حتى يتوب ويعود . وهى مع ذلك تعيش فى العصر الحاضر وتستفيد بآخر ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية والمعارف البشرية من كشوف واختراعات فى القرن العشرين . فلا هى تخلت عن دينها كما فعل المخدوعون الذين يسيرون فى ركاب الأجانب دون وعى . ولا هى حرمت من الاستمتاع بالمباح مما يسرته الحضارة والعلم فى عصر الحضارة والعلم كما وقع لبعض الجامدين والمتزمتين الذين يغمضون أعينهم عن كل ما لم تصنعه أيديهم .

انتشار الإباضية ثم انحصارهم

لقد سبق أن ذكرنا أن الإباضية طيلة القرنين الثانى والثالث كانوا منتشرين فى كامل القطر الجزائرى ويكوّنون أغلبية السكان فيه ، وفى القرون التالية إلى القرن الثامن الهجرى أو بعده بقليل كانوا يملأون بلاد الواحات من القطرين: الجزائر وتونس كما كانوا منتشرين فى أغلب النواحى الشرقية للجزائر والنواحى الجنوبية والغربية لتونس أما الآن فهم منحصرون فى وادى ميزاب ووارجلان من الجزائر. وقد بحثت كثيراً عن الأسباب التى جعلت إباضية الجزائر ينحصرون فى وادى ميزاب ووارجلان ، وجعلت إباضية تونس ينحصرون فى جربة ، وجعلت إباضية ليبيا ينحصرون فى جبل نفوسة وزوارة ، وللإجابة عن النقطتين الأخيرتين مكان غير هذا المكان . أما عن النقطة الأولى فبعد أن رجعت إلى ما لدى من مصادر ، وما بين يدى من مراجع وبعد دراسة ما أمكن لأوضاع الجزائر المختلفة والمتقلبة عبر العصور المتلاحقة ـ رأيت أن أستعين على الموضوع برأى عالمين فاضلين من علماء الجزائر أحدهما العالم الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان إبراهيم وثانيهما العالم المؤرخ الأديب أستاذنا باكلى عبد الرحمن بن عمر فوجهت إلى كل واحد منهما على انفراد السؤال الآتى :

« ما هى الأسباب التى أثرت على الإباضية فى الجزائر حتى انحصروا فى وادى ميزاب ووارجلان » .

وقد أجابنى كل من الشيخين الفاضلين فكان بينهما لقاء فى أكثر الأسباب ويتلخص جواب شيخنا أبى اليقظان فى النقط الآتية :

١ ـ مضايقة جيرانهم لهم ، ومحاربتهم لهم باستمرار ، ويقصد بالجيران أولئك الناس الذين كانوا يحترفون الغارة ويعيشون على النهب والسلب ، أولئك الحكام الذين يعملون على إخضاع الناس لابتزاز أموالهم والتحكم فى رقابهم .

٢ ـ القحط والسنون : فقد توالت على مناطق الجنوب خاصة سنوات متوالية من القحط والجفاف اضطرت أكثر الناس إلى الهجرة .

٣ ـ موت علمائهم بسبب الفتن المتوالية وفشو الجهل بناشئتهم وعدم معرفتهم لأصول مذهبهم فاعتنقوا المذاهب الأخرى .

هذه خلاصة الأسباب التى أرجع إليها شيخنا أبو اليقظان أسباب انحسار الإباضية عن أغلب القطر الجزائرى وانحصارهم فى وادى ميزاب ووارجلان الآن .

أما أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن فقد أجاب إجابة فيها بسط وإسهاب ولعل من المفيد للقارىء الكريم أن أنقل إليه نص جواب الشيخ، قال حفظه الله:

« إذا بحثنا عن الأسباب التى أثرت على الإباضية فصيرت كثرتهم إلى قلة وجعلتهم ينحصرون فى نقطتين اثنتين ميزاب ووارجلان بعد أن كانوا فى أكثر من عشرة مواطن لا يقل الواحد منها عن الباقين قوة وكثرة وجدنا لذلك أسباباً كثيرة منها :

١ ـ الظاهرة العامة المتأصلة فى نفوس البربر الذين هم أغلبية سكان الجزائر فى مختلف أدوارها، ومعلوم أن البربر متمسكون أشد التمسك بمبادئهم

إذا كانت هذه المبادىء تتصل بالعقيدة ، فهم يحاربون من أجلها ويموتون فى سبيلها[١] .

٢ ـ حياة الفوضى التى عمت القارة وطبعتها بطابعها ، وضعف السلطة المركزية أن تسيطر على الحالة فتوقف كل عند حده وتحمل الرعايا ولو بالقهر على التزام النظام واحترام الحريات والحرمات .

٣ ـ جور الحكام وانتهاجهم سياسة التفقير والاتخان فى البربر عملا بوصية أسلافهم وعلى رأسهم الأصحاب الذين ينتمى معظمهم إلى قبيلة زناتة العظيمة المعادية للصنهاجيين وخلفائهم ومن نهج منهجهم السياسى يدلك لذلك ما حكاه الشيخ الشماخى عن بعض حفدة الشيخ أبى باديس أبخت بن باديس البشكنى أحد شيوخ الإباضية الأغنياء الذى كان يسكن فى بونة فقد ربى فرسين بأمر جده فأحسن تربيتهما وتأديبهما ثم أهداها إلى المعز بن باديس الصنهاجى مداراة فقبلهما منه وفرح به وبهما وأكرمه . فكره وزراؤه ذلك نطعنوا فيه وأفسدوا قلب المعز عليه ، قالوا : اقتله فإنه من الإباضية وقد أمكنك ورأيت عظم ما أتاك به وكيف ما خلف وراءه لئلا يخالف عليك .

(وفى هذا التعليل كل الدلالة على روح السياسة وقتئذ) فقال لهم : كيف الحيلة إلى قتله وقد عرف القاص والدانى قبولنا لهديته .

قالوا : تأمره أن يلاعب أسد السخط ـ وهو الأسد الضارى العادى ـ بفرسه فيهلكه . قال الحفيد : «فأرسل إلىّ المعز فقال : تلاعب بمهرك أسد السخط ـ وأنتم زناتة تذكر عنكم الفروسية ـ فقلت : لبيك . زهواً وتيهاً .

---

(١) نقلت هذه الفقرة بتصرف .

فأمر بى أن أدخل خان السباع فركبت مهرى الأول وأطلق علىّ سبع ضارٍ عادٍ ، وجلت مع السبع فى الدارملياً حتى إذا ارتاضه المهر قربته إليه فهمزته بالأشابير فضربه على أم رأسه فتغلل حافره فى رأسه فوقع كالنخلة السحوق ، ونجوّت والحمد لله رب العالمين » . انظر تفصيل القصة فى سيرة الشماخى ص ٣٨٣ .

٤ ـ الصراع الذى لا يكاد يفتر بينهم وبين الحكام الجورة وعدم الاستكانة لهم ، ومما يذكر فى هذا الباب أن أحد المشائخ كان لا يلتفت إلى جبار احتقاراً ولا يصافح الجبابرة البتة فلما قيل له فى ذلك أجاب : « إن الله يسأل اليد لم تصافح اليد » وكان من مبدأهم عدم الوفادة إلى الجورة ، وقد أخرجوا فعلا عبد الله بن جابر لوفادته إلى أمراء قابس وهاجروه ، ويروون فى هذا خبراً « إن رأيتم العالم يمشى إلى باب السلطان فاتهموه على أمر دينكم » وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للأمير مقالة ... لا تركنّ إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى ... أبوابكم لاخير فيه

٥ ـ تأصل العداوة ضد نزعة الأصحاب التحررية التى ينعتونها بالخارجية (وإن كانت من لباب الإسلام) خوف الجورة على سلطانهم منهم وتأليب الغوغاء عليهم ، تخضيداً لشوكتهم ، وتوهيناً لقوتهم ، وإشغالهم بالدفاع عن أنفسهم لئلا يتفرغوا لمهاجمتهم .

٦ ـ وقوفهم دائماً موقف الدفاع إزاء أعدائهم ، ولا يقفون موقف الهجوم أصلا . وأنت خبير أن المدافع دائماً إلى ضعف ، وماغزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا .

٧ ـ وقوفهم عند حدود الشرع فى معاملة خصومهم وإن جاروا عليهم عملا بقول عمر بن الخطاب : « ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » .

٨ ـ تحكم النزعات المذهبية التى احتضنتها بعض تلك الدول وشجعتها لأنها لا تكون فى نظرها خطراً على نفوذها ، ورأته الخشخاش الذى يكرهه المذهب ويظل فى أنفه ما عاش .

٩ ـ عدم استنادهم إلى دولة عتيدة تحمى ظهرهم وتشد أزرهم وتجمع كلمتهم بل ظلوا أوزاعاً مبددين هنا وهناك .

١٠ ـ ابتلاؤهم ببعض زحوف وهجمات ذوى المطامع من الملوك والأمراء الذين ينزعون إلى الاستبداد والسيطرة كالميورقى الذى اصطلم وارجلان (يعنى ناحيتها وعلى الأخص صدارته) سنة ٦٢٦ وهدم سورها وتركها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس .

١١ ـ ما ينزل بهم من التخريب والترويع والتشريد أثناء انتقال السلطة من دولة إلى دولة دون غدون تسليم المهاجَم ملكه واستيلاء المهاجِم عليه دماء تسيل وأرواح تزهق ، وعمران يخرب ويقوض ، وأموال تفنى وتبدد ، وحرمات تنتهك إلى غير ذلك .

١٢ ـ مطاردة الجورة إياهم وتغريمهم بغرامات لا قبل لهم بأدائها تعجيزاً لهم ، وتذرعاً إلى قتلهم ، انظر حكاية أبى الخير الزواغى مع أحد أعوان ابن باديس : السير ص ٣٣٦ .

١٣ ـ وإذا أضفت إلى كل ذلك نزوعهم إلى حياة الروح والعكوف

فى الخلوات وعزوفهم عن الجانب المادى الذى يخولهم قوة يستطيعون بها رد عاديات الأيام لم تستغرب من النتيجة الحتمية .

وهكذا تضافرت هذه الأسباب عليهم ، واستمرت تضعفهم شيئاً فشيئاً حتى تركتهم بالقلة التى نشاهدها عليها اليوم ، وجعلتهم ينحصرون فى ميزاب ووارجلان .

ولكن ما السر فى انحصارهم فى تلك المنطقة دون سواها وبقائهم فيها إلى اليوم .

السر أن منطقة ميزاب ووارجلان منطقة بعيدة عن أوساط الاحتكاك ولم تكن من المناطق الخصبة التى يكثر فيها النزاع ، بل هى فى صحراء قاحلة تأخذ ولا تعطى ، فكانت قحولتها كشوك القنفذ تقصى الأيدى منه . انحازوا إليها محافظة على عقيدتهم وأخلاقهم ، وضناً بوحدتهم أن تذوب وسط خضم المجتمع الكبير الذى تسوده الفوضى وتطاحن القوى ، وعدم التقيد بمبادىء الدين فى تصرفاته .

وقد استعانوا على بقائهم بخصائص جمعها الله فى هذه الكتلة الصغيرة الكريمة .

جمعت إلى المتانة فى العقيدة الاستقامة فى السمت ، وإلى الصبر على شظف العيش العمل المستمر ، وإلى الاقتصاد فى النفقة تعاون الرجل والمرأة . الرجل يغترب وراء الكسب ، أو يعتكف على استثمار أرضه والمرأة تشتغل سحابة يومها وهزيعاً من الليل فى الغزل والنسيج ، وإلى الغيرة الوطنية إسعاد ذوى اليسار للمحاويج العاطلين . وإلى العمل التطوعى المتبادل بين العموم « التويزه » القيام بأنظمة البلد تطوعاً واحتساباً . كنظام العزابة ونظام

العشائر وضمانها ونظام الحراسة هذه الخصائص هى التى حفظت لهذه المجموعة بقاءها ولن تزال إن شاء الله ما دامت تتمتع بها » .

هذا بعض ما قاله أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن .

أحسب أنه لم يبق لى فى هذا الفصل عمل بعدما نقلته إلى القارىء الكريم عن الشيخين الفاضلين فإن الصورة التى رسماها للحالة التى أردنا تصويرها كانت صورة دقيقة كاملة ، وما أحسب الدارس واجداً فوق ذلك أو بعد ذلك ما يزيده لها . ولقد يكون من الأسباب التى ذكرها شيخنا باكلى بعض الإطناب ولكنه إطناب يقتضيه استيفاء جوانب الصورة كاملة ويتطلبه جهل الناشئة بأحداث التاريخ ، وبالأمراض المزمنة التى أصابت الأمة المسلمة فى عصور طويلة فلم تزل تنخر فى عظامها حتى أسلمتها للمرض الذى هيأها لأن تقع فريسة فى يد المستعمر الذى يتظاهر بأنه يسعى وراء السلطة والحكم ووراء المكاسب الاقتصادية والمادية ، ولكنه فى الحقيقة ما كان يعمل إلا للقضاء على عقيدة الإسلام ، العقيدة التى اندفعت بالبشرية فى المنهاج الذى رسمه لها الخالق الحكيم . فلم ترض بذلك الوثنية والزندقة والإلحاد وآزرت هذه القوى المتضامنة قوى أخرى من المسيحية المحرفة والصهيونية المتقمصة ثياب اليهودية المعذبة . وتآزرت هذه القوى جميعاً على الإسلام بادىء الأمر فى الميدان العسكرى والسياسى ثم فى المجال الخلقى والدينى وقد نجحت فى خطتها الأخيرة نجاحاً سريعاً لم يتوقعه خبراء الفتنة والتضليل فيها .

حين كانت تلك القوى المتآزرة المتآمرة على الإسلام والمسلمين تلم شتاتها لتجاربه فى كل شبر من أراضيه وفى كل منحى من حياته وفى كل خلق كريم من أخلاقه وفى كل مبدأ سام من مبادئه كان المسلمون

سادرين فى غفلة عما يراد بهم ويساقون إليه .

يتناقش العلماء منهم والمثقفون فى مدلول الألفاظ والعبارات ، ويتصارع الأغنياء منهم وذوو اليسار على الترف والبذخ والإسراف فى النفقات ويتقابل أصحاب السلطة على مناصب الحكم وكراسى الإمارات ، ويدأب الصعاليك والمغامرون على إشعال الفتن وشن الغارات وتهارش العامة الجاهلة حائرة بين هذه الفرق ومندفعة بحماس تارة طلباً للدنيا وتارة طلباً للدين ، ولكنها فى كل ذلك تسير وراء قيادة غير نزيهة فى أغلب الأحوال . وبذلك عاش المسلمون هذه الفترة من تاريخهم فى حروب وفتن مظلمة يضرب بعضهم البعض معرضين عما يجهزه لهم الأعداء . ولاشك أن هذه العوامل وماجرت إليه إنما نشأت عن انحراف المسلمين عن منهاج الإسلام .

فقد انحرف أصحاب السلطان فحكموا بالظلم وتصرفوا فى المال بغير عدل ، وأخذوا الرشوة بغير موجب ، وعاملوا الناس بغير حق وانحرف العلماء عن منهاج الإسلام ، فتملقوا الحكام ، واسترضوا أصحاب السلطان وسكتوا عن منا كرهم ، بل وبرروا لهم انحرافاتهم . وانحرف الأغنياء عن منهاج الإسلام فأصبح التنافس على كسب المال هو غايتهم ، وتساهلوا فى معرفة الحلال والحرام فلم يعنهم كيف يصل المال إلى أيديهم ثم استأثروا بحق الفقير ، وتهاونوا بمصلحة الأمة ودخلوا فى منطقة الربا والترف .

وانحرف العامة عن منهاج الإسلام . فرغبوا أن يشاركوا أصحاب الأموال فى أموالهم ، وأصحاب السلطان فى سلطانهم بطرق غير شريفة ولانظيفة فصاروا آلات فى أيديهم . يكسب بها الغنى ، ويضرب بها الحاكم ، ويستغفلها العالم .

وانحرفت الأمة بأجمعها عن منهاج الإسلام فاتكلت على غير الله

واعتزت بسواه وتوددت إلى أعـداء الله ، وربطت أواصر الصداقة والمحبة مع من نهى الله عن مودتهم وقسمت المشركين والكفار إلى قسمين ، تقبل على بعضهم وتعرض عن البعض فيما تحسب ، وإنما هم يتلاعبون بها كما يلعب الأطفال بالكرة فتارة تحت قدم هـذا وتارة تحت قدم ذاك .

هذه الأمور بعض أسباب المحنة ودواعي الفتنة نسأل الله تبارك وتعالى أن يزيل الغشاوة عن عيون المسلمين فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

صورة مصغرة لحياة الإباضية فى الجزائر

بعثت سؤالا عن هذه الصورة إلى الأستاذ شيخنا باكلى عبد الرحمن فأجابنى حفظه الله فى رسالة مطولة تحتوى على اثنتى عشرة صفحة رأيت أن أقتطف منها ما تقرؤه فيما يلى :

« كان المجتمع الإباضى الجزائرى فى عهد الشيخ أبى عبد الله محمد بن بكر (أى فى أوائل القرن الخامس للهجرة) مجتمعاً إسلامياً فى عقيدته وأخلاقه وسمته، غنياً برجاله الصناديد وبعلمائه الفطاحل وبجيوش طلبته الميامين بله العامة الذين يخضعون لرؤسائهم ومشائخهم ويستميتون فى حمايتهم إلى آخر قطرة من دمائهم، وكانت النواحى الآهلة بهم كلزاب ووادى أريغ ووارجلان وسوف وجبال بنى مصعب (ميزاب) تعج بهم عجاً ، وكانوا إلى ذلك على اتصال وثيق بإخوانهم إباضية جبل دمر وقصطالية وجربة وطرابلس ونفوسة، وكانت لهم خطة متحدة الأهداف لاسيما فى كفاح الجورة الحاكمين بأمرهم قمعاً للظلم وتنغيصاً للساقطين وصدهم عن القضاء عليهم واصطلامهم كما هى سياسة الحكام الشيعيين وخلفائهم الصنهاجيين (انظر وصية الفاطمى)[1] .

كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسم ، حياة التقشف ، لا يحفلون بالقشور ولا يميلون إلى الترف والنعيم ، وأنّى لهم . وقد صرفوا كامل عنايتهم إلى الاضطلاع بدين الحق ، إلى تصحيح العقيدة ، إلى نشر تعاليم الإسلام

---

(١) لما ارتحل المعز الفاطمى إلى القاهرة أوصى خليفته على المغرب يوسف بن زيرى قائلا : « إن نسيت شيئا مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لاترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحد من إخوتك وبنيك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . واستوصى بالحضر » .

بين الجماهير الساذجة ، وحملهم عليها قولا وعملا ، فانساقوا فى هذا السبيل ، سبيل الآخرة إيثاراً للآجلة على العاجلة، وساعدهم على تحررهم من مهام الملك التى تستنزف جهودهم وأوقاتهم ، وتحملهم على اعتناق الحياة المادية طوعاً أو كرهاً .

أجل إنهم وإن لم يعرضوا عن الحياة المادية تماماً إلا أنهم يحيون حياة هزيلة لا تعدو ـ على عمومها ـ تربية المواشى وفلاحة الحبوب ، وغرس النخيل والأشجار سيما الزياتين . إلى شىء من تجارة عمادها المقايضة، وإذا قدر لبعض الأشياخ ـ مثلا ـ أن يكون ذا ثروة فإنه يقنيها فى كفالة الطلبة الذين ينقطعون لخدمة العلم وإقامة شعائر الدين والوعظ والإرشاد احتساباً وامتثالا لما يأمر به الدين ، ويدعو إليه القرآن الكريم ، الأمر الذى حفظ للدين تعاليمه وللعلم حقائقه ، ولحسن السلوك منهاجه ، فكثرت جيوش العلماء وكثر تنقلهم من ناحية إلى أخرى تثبيتاً للأقدام ، وإصلاحاً لذات البين، وتصحيحاً للأخطاء ، وقياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على صعوبة المواصلات وقلة الوسائل ، وخوف السابلة وبُعد المسافات .

ولذلك حافظوا على المذهب الإباضى بين تلك الزعازع والأعاصير العاصفة فى مختلف نواحيه ، واستطاعوا أن ينازلوا خصومهم الذين يحاولون جهدهم تحويلهم عن عقيدتهم وزعزعتهم عن مراكزهم وحملهم طوعاً أو كرهاً على الذوبان فى بوتقتهم .

والحق أنهم أوتوا صبراً عجيباً ، وقدرة فائقة على تحمل شظف العيش، ومجابهة خشونة الحياة ، وترك حظوظ النفس إرضاء لربهم واستعداداً لتحمل الأمانة التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشفقن منها وحملها الإنسان ، يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى إذا نبغوا تصدوا للتعليم وعقد الرحلات للدعوة إلى الله وتفقد أحوال المسلمين . ورأب صدعهم ، وجمع كلمتهم ، وتصنيف الكتب فى مختلف العلوم لاسيما فقه الشريعة ، وتوجيه قافلة الخلق فى طريق الخالق ، والانقطاع إلى العكوف على عبادة الله فى الخلوات طالبين بذلك رضى الله عنه ونعيمه المقيم ، مسترخصين فى سبيل ذلك كل عزيز ونفيس . فترى الأشياخ المياسير يقومون بتموين طلبتهم وكفالتهم حتى تفنى ثروتهم ، فقد قص علينا الشيخ الشماخى أن نيفاً وثلاثين شيخاً منهم أبو عبيدة وشق من شيوخ أهل الدعوة تعاهدوا أن يتكفلوا بنوائب الحلقة وحوائج الطلبة فمن مات منهم قام الباقى مكانهم حتى لم يبق إلا الشيخ أبو عبيدة وشق فاستمر فى عهده حتى توفى .

وكما قص علينا سيرة أبى عبد الله محمد بن سليمان النفوسى وكان ممن وسع الله عليه وكانت عنده كثرة التلاميذ يعلمهم ويطعمهم ويكسوهم من خالص ماله : إذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها الدفء ، وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف وادخر الأخرى وربما باعها بالثمن الذى اشتراها به .

أجل هناك بعض النواحى تمتاز عن سائرها بتعاطى التجارة وعقد الرحلات إلى البلاد النائية طلباً للرزق كتجار وارجلان الذين يسافرون إلى السودان وبلاد غمانة . قال الشريف الإدريسى عن مدينة وارجلان : « ورقلة هى مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يجولون فى بلاد السودان إلى بلاد غانة ـ ونقارة ـ وهكارة فيخرجون منها التبر ويضربونه فى بلادهم ـ عملة مسكوكة ـ باسم بلادهم وهم وهبية إباضية والذى جعل جمهور

الأصحاب يفضلون خشونة العيش والكفاف أنهم لا يستطيعون التفرغ للاكتساب مقلقين فى أوطانهم ، خائفين فى أسفارهم مخاطرين عرضة للنهب والسلب والقتل من جيرانهم بله إمعان الجورة فى تجريدهم مما بين أيديهم ، وتشريدهم فى البلاد والنكاية بهم .

فأنت ترى أن هذه الأجواء التى يتنفسون فيها شبه الغاز المخنق لا يساعدهم على تكوين الثروات ولا على استبقائها ، وهل تبقى — لأبالك — ثروة وسط هذه الزعازع والأعاصير سواء كانت مادية أو أدبية — أجل لولا تلك الفتن الداخلية والخارجية المتوالية والحروب المتتالية وعوامل المحو والإبادة التى تسلطت عليهم خلال القرون فأفقدتهم من الأموال ، وأخنت عليهم كما أخنت على لبد ، وأتت على ماهنالك من تراث علمى . لأبقت تلك القرائح الوقادة ، والعقول الراجحة لنا وللمكتبة الجزائرية من الكنوز والزخائر ما يرفع رأسها عالياً بين أمم التاريخ .

ثم لولا ما أنشأوا من مدن ، وبنوا من ديار ، وغرسوا من بساتين وحفروا من آبار ، وأقاموا من سدود ، ومدوا من قنوات سواقى الرى فى شتى النواحى الصحراوية المتباعدة فكونوا واحات زاهرة مزخرفة تلمع فى وسط الصحراء القاحلة لمعان النجوم فى سماء ليل بهيم .

أجل لولا ما نشروا من علم ، وركزوا من عقائد صحيحة وقاوموا من بدع مبيرة ، ومرنوا الجماهير على اتباع القول العمل ، وأحيوا من معالم دين محمد ﷺ فى وسط عصر عمته الفوضى والجهالة وتحكمت فيها الأهواء والنزوات ، وطغى سلطان المادة على النفوس فطمس بصائرها أن تتنور الحق ، فانغمست فى محبة الشهوات والحظوظ النفسية وألهاهم التكاثر حتى زاروا

التقابر . لولا ذلك ـ وناهيك به ـ لكانت حياة مجتمعنا طيلة هذه القرون يوماً مكروراً متشابهاً وغير متشابه .

ظل مجتمعنا طيلة القرون الخامس والسادس والسابع فى ازدهار وانتشار (كما أسلفنا) فكانت مضاربهم فى وادى أريغ وسوف . ووارجلان والزاب وتاجديت ، والرمال ، وصدراته ، وجبال بنى مصعب (ميزاب) ، مضرب المثل فى الاستقامة وإحياء سيرة الرعيل الأول من سلف الأمة الصالح. وناهيك بتاجديت وما بلغته من ازدهار وتألق .

كذلك مجتمعنا ظلت عوامل المحو والإبادة تناوشه وظل هو بدوره يقاومها دراكاً بينما قوة مقاومته تضعف شيئاً فشيئاً حتى ألقى السلاح واستسلم أمام ضربات الدهر القاسية ، ونحن إذا استثنينا الأقلية الضئيلة الباقيـة بوارجلان وجدنا المذهب الإباضى يأرز وينحصر فى جبال بنى مصعب (ميزاب) وإن لم يكن ثمت أيضاً بنجوة من انتابه فى أوطانه الأولى ولو ذهبنا نستعرض ما مر به فى أدوار تاريخه من خوف ونهب وسلب وسطو وفوضى وتسلط ذوى الأطماع من الأمراء ومن فتن داخلية ، وقحط ومسغبة وأمراض ، وضيق العيش ، وغير ذلك من أرزاء الحياة لتعجبنا كيف قدر لمجتمع صغير مثله أن يبقى إلى اليوم فى الوجود .

ولعله يظل كذلك صامداً صمود الجبال الراسخة ، يهزأ بالأنواء والأعاصير ويضحك فى وجه النوائب والمحن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها « وهو خير الوارثين » .

هذه مقتطفات من إجابات شيخنا باكلى عبد الرحمن عن الصورة التى طلبتها وقد رسمها حفظه الله ورعاه فى إطار أوسع من هذا الذى اقتبسته منه فظننت أن هذه الجوانب كافية لجعل القارىء عالماً بالظروف التى عاش فيها المجتمع الإباضى فى الجزائر ما يزيد عن عشرة قرون .

البراءة والهجـــران

البراءة هى التطبيق العملى لقاعدة الولاية والبراءة الشخصيتين فى المذهب. فإن المسلم المستقيم هو أخ لجميع المسلمين يتعاملون معه على أسس التقوى ورضوان الله، وعندما يثبت على شخص ما ارتكاب معصية تعلن منه البراءة حتى يتوب. ويتبع ذلك كإجراء تأديبى، هجرانه أى مقاطعته اجتماعياً فلا يتعامل أحد معه. فيجد نفسه معزولا من المجتمع فيضطر إلى التوبة لتعود إليه مكانته ويستطيع أن يعيش بين المسلمين كواحد منهم.

وقد جرى فى بعض العهود توسع فى تطبيق الهجران فلم يقتصر فيه على من يرتكب المعاصى المعروفة وإنما يطبق على من يخالف السيرة المتعارف عليها وعلى من يرتكب ما يعتقد أنه يحط من قيمة الشخص أو يسبب مضرة للأفراد أو انحلالا وتفككا فى المجتمع. ثم وقع تشدد أكثر فى أهل العلم ومن يقتدى بهم الناس ويتأثرون بسلوكهم.

ولعل مما يفيد القارىء الكريم أن أنقل إليه ما قاله أبو العباس الدرجينى وهو يتحدث عن هذا الموضوع قال:

« الخطة والهجران والإبعاد والطرد ألفاظ تترادف على معنى واحد، وذلك متى أجرم أحد من أهل الطريق جرماً، أو ظهرت عليه خزية. أو أتى بنقيصة فى قول أو عمل أو تضييع، فإنه يهاجره كل أهل الصلاح فلا يكلم ولا يحضر جماعة، ولا يؤم، ولا يؤاكل، ولا يجالس، وكأن خطة بينه وبين أهل الخير. فإن تاب واستغفر قبل منه، ورجع إلى الجماعة وزال عنه شين ذلك الاسم، وكان بقاؤه فى وحشة الهجران بقدر عظم

الجزم وصغره وتوبة المجرم وإصراره ، فمنهم من يتوب ويرجع فى الحال ، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوماً أو يومين أو أياماً أو شهوراً أو أعواماً أو عمره إذا عظم الجرم ودام المجرم على الإصرار وترك الاستغفار . أسأل الله أن يقينا شر أنفسنا وشر كل ذى شر » .

وفى هذا الفصل أريد أن أضع أمام القارىء الكريم صوراً من وقائع الهجران التى نفذت فى بعض الحالات والتى شملت جماعة من كبار العلماء والأئمة الذين يقتدى بهم الناس و تتبعون أقوالهم وفتاويهم بل بعض من تعتبر مؤلفاتهم أصولا ومراجع فى المذهب الإباضى ليرى القارىء الكريم مدى الحرص الذى كان عليه ذلك السلف الصالح فى المحافظة على الاستقامة بل على السلوك الرفيع طبقاً لأرفع الآداب التى دعا إليهـــا الإسلام . وإليك الأمثلة :

١ ـ زار أبو محمد عبد الله بن عيسى صديقه أبا يعقوب يوسف بن موسى فوجده يطالع بعض الكتب الفلسفية التى تبحث مسائل الخلاف فى علم الكلام وتتوسع فيه فنهاه عن قراءة تلك الكتب ونصحه بالابتعاد عنها ، خوفاً من أن تؤثر عليه أو أن يعرف حاله ضعاف الطلبة فيقتدون به فى قراءتها فتؤثر عليهم ، فلم يستجب أبو يعقوب لصديقه ولم يعمل بنصيحته واستمر على منهاجه فى المطالعة والدراسة ، ولما اجتمع المشائخ بتونين أخبرهم أبو محمد بالموضوع وماقد يترتب عنه فناقشوا المسألة واقتنعوا بوجاهة رأى أبى محمد فاتفق رأيهم على هجران أبى يعقوب فبعثوا إليه بذلك . فبادر بالذهاب إليهم وأعلن توبته بين أيديهم ووعدهم بترك دراسة الكتب التى يخشونها عليه أو على غيره ممن يقتدى به .

٢ ـ كان الشيخ صالح يعلوا بن صالح فى المرتبة التى لا تدانى علماً وعملا وخلقاً ، وبلغ المشائخ عنه شيء . وكان كبير السن فجاز عليه المشائخ سنة ثمانية وخمسمائة فجعلوا يعاقبونه على أشياء بلغتهم عنه وجعل يستغفر ويتوب ويقول لا أعود . حتى انتهوا وقبلوا منه ورفعوا عنه حكم الهجران . فقال لهم : لم أفعل ما بلغكم عنى . وكل مابى إنما هو ضعف ومرض ولا شيء مما تكرهون .

٣ — الشيخ تبغورين بن عيسى الملشوطى أحد أئمة الإباضية وكتابه فى علم الكلام يعتبر أصلا من الأصول المعتمدة ، وأقواله وآراؤه تعتبر حجة. ومع ذلك فلم يسلم من الهجران فقد بلغ المشائخ عنه شيء فحكموا عليه بالهجران ووضعوه فى الخطة واضطر أن يسافر إلى تينوال يتوب بين أيديهم ويعتذر مما نسب إليه حتى قبلوا منه .

٤ — كان إسماعيل بن لعباس عالماً فاضلا وبلغتهم عنه أخبار فوضعوه فى الخطة حتى جاءهم وتاب بين أيديهم وقبلوا منه .

٥ — عاتبوا جميع شيوخ أريغ منهم من أخرجوه إلى الخطة ومنهم من اكتفوا بعتابه وتوبيخه . وحكموا على جميع شيوخ تينوال فأخرجوهم إلى الخطة حتى تابوا .

٦ من المواقف الصلبة التى وقفوها ضد بعض العلماء موقفهم مع سليمان بن عبد الله بن بكر فقد كان هذا الشيخ أفتى بمسألة مخالفة للمعمول به بتاجديت فأخرجه الأشياخ إلى الخطة وجاء سليمان يتوب بين أيديهم فلم يقبلوا منه إلا بعد اثنتى عشرة سنة . ذلك لأنهم قالوا: إن الفتوى قد انتشرت

فى الناس ولا تتم التوبة حتى يبلغ خبر رجوع الشيخ عن فتواه إلى كل من بلغته الفتوى الخاطئة .

٧ — كان الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن أبى زكرياء من أعلم الناس وأتقاهم فرحل إلى البادية وأقام بها أياماً فبلغ الأشياخ أنه أكل طعاماً عند أناس لا يتقون الشبه ولا يعفون عن الحرام . فأرسلوا إليه بالهجران فلما بلغه الخبر وهو بالبادية دعا إليه ولده أيوب وأمره أن يُرَحِّلْ له على الناقة وكان الشيخ قد كبر وضعف فركب الناقة وأخذ الولد بخطامها يقودها فحرص الشيخ أن لا يكلم ولده إلا إذا قال له الطريق من هنا أو من هنا . حرصاً على تنفيذ حكم الأشياخ ولئلا يكسر عليهم هجرانهم ، حتى دخل وارجلان وأناخ بباب مسجد « تامّاست »[1] ووقف على باب المسجد يتوب ويتضرع ويسألهم القبول منه . ولا يزيد عن التوبة وهم يعاتبونه ويلومونه فيقول لهم : تبت ولا أعود آجركم الله . حتى قبلوا منه ورضوا عنه فقال لهم : يا مشيختى لم أفعل شيئاً مما بلغكم .

٨ — كان علماء الإباضية يشددون النكير على التعامل مع القبائل التى لا تتقى الشبهات ، ولا تحرص على مراعاة الحلال فى كسب الأموال ، وكانوا ينهون عن التعامل مع ثلاث من قبائل البربر وهى بنو غمرة ، وبنو ورسفان ، وبنو بنجاسن . لأن هذه القبائل لا تتورع عن النهب والغصب ولا تعف عن الغارة والسلب . وكانوا يقولون : إذا حضر إليك طعام وغسلت يديك لتأكل فتبين لك أنه طعام بعضهم فارفع يدك ولا تأكل . وكذلك كان حكمهم على بعض القبائل العربية من بنى هلال وبنى سليم ممن يسلك نفس المسلك ويحترف نفس الحرفة .

---

(١) كلمة بربرية معناها الوسطى .

٩ — أشيع عن قبيلة مغراوة أشياء أنكرها الأشياخ ، منها تطفيف الكيل وتقديم غير الأكفاء فى المصالح العامة . فاجتمع جمع من المشائخ منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر وعبد السلام بن وزجون ويحيى بن ويجمين ويونس بن أبى الحسن وأمثالهم فحكموا على مغراوة كلها بالهجران وأخرجوها إلى الخطة . فاجتمعت القبيلة بأسرها عند المشائخ وأعلنت أنها أتت تائبة ففوض الأشياخ الشيخ سمداسن لمناقشتهم فجعل يذكر لهم المنكرات التى تنسب إليهم والتى انتقدها المشائخ عليهم ووضعوهم فى الخطة من أجلها فأعلنوا توبتهم واستعدادهم لتنفيذ أوامر المشائخ والمحافظة عليها والرجوع إلى السير فى المنهاج والمحافظة على السيرة التى عرفها الأخيار من أهل الاستقامة ، فقبل الأشياخ منهم وعفوا عنهم وحذروهم الاغترار والانخداع بوسوسة الشيطان .

١٠ — كان علماء الإباضية كثيراً ما يؤلفون وفوداً يكلفونهم بزيارة إخوانهم والاطلاع على أحوالهم ومعرفة شئونهم ، فإذا وجدوا ما ينكرونه عندهم أنكروه عليهم لا يخافون لوماً ولا يخشون غير الله . وتألف وفد فيه العلامة داوود بن أبى سهل فلما قدموا على شيوخ أريغ لم يعجبهم حالهم فعابوهم وانتقدوهم ، ووضعوهم فى الخطة حتى تابوا وعاهدوا الله أن يحافظوا على السيرة النظيفة التى سار عليها المسلمون السابقون من المنهج الإسلامى فقبلوا منهم ورفعوا عنهم ذلك الحمل الثقيل .

١١ — ولعل من أجمل ما يروى فى هذا الموضوع موقف العلامة الشيخ أبى الحسن على بن خزر الوسيانى النفوسى ، فقد ترامت عنه أشاعات إلى الشيخ سعد بن يفاو ، فقدم عليه وعد عليه ثمان خصال بلغه أنه فعلها مما لا يستقيم مع سيرة الفضلاء العدول ، وكان الشيخ الوسيانى بريئاً منها جميعاً

فكان كلما ذكر سعد خصلة منها بادر أبو الحسن إلى التوبة والاستغفار والتعهد بعدم العودة إليها وإلى ما يغضب المسلمين حتى أتمها فقبل منه ورفع عنه حكم الهجران .

ولما مضى جاء أصدقاء أبى الحسن وأقرباؤه يلومونه أنه لم يدفع عنه مانسب إليه وهو برىء منه فقال أبو الحسن :

« أعوذ بالله أن أرد ناصحاً ، ولو رددته لضربنى ذلك فيما أعمل . يقول من يريد نصحى ، نصحه فلان فلم يقبل وأنا لست خيراً منه » .

١٢ ـ ولعل من أطرف ما يروى فى هذا الباب القصة الآتية :

كان أبو مسور يسجا يدرس فى شروس على شيخه العلامة أبى معروف وكان أبو معروف كسائر أهل الجبل فى ذلك الحين . يشتغل بالزراعة ، فذهب ذات يوم إلى بعض جنانه يعمل ما يعمل الفلاحون ـ وكان الوقت صيفاً ـ فتخفف من ثيابه الثقيلة ولم يبق عليه إلا سراويل . ولحق به تلميذه أبو مسور فوجده يشتغل على تلك الحال . ورأى أبو مسور أن هذه الحالة لا تتناسب مع شيخه الوقور الذى يعتبر قدوة وإماماً فأخرجه إلى الخطة . ولم يزل الشيخ يتوب بين يدى تلميذه ويتعهد بأنه لن يعود إلى هذه الحالة حتى قبل منه . وأراد أبو مسور أن يستمر فى عتاب شيخه فأسكته الشيخ قائلا : قد كان لك ذلك قبل قبول التوبة ، أما بعد قبولها فليس لك أن تلوم . ولعل هذه القصة لا تتم إلا بالصورة المناقضة لها فى القصة الآتية :

فقد ذكر أبو العباس الدرجينى فى كتابه الطبقات ما يلى :

قال أبو الربيع : جئت لزيارة عبد الله بن الأمير فلم أجده فى منزله . فأعلمت أنه فى الأندر فقصدته . فوجدته فى جبة صوف ، وقد وضع كساءه ،

وهو يضم أطراف الأندر ، فلما رآنى تنحى إلى كسائه فلبسه فلاقانى ، فصافحته ثم أقبل يعتذر كأنه أساء فى وضع الكساء . وقلت له : وهل فى ذلك من بأس . أليس هو العمل فى الحلال . فقال : نعم ، ولكن أين من يحسن العمل فى الحلال . إنما يحسن ذلك أبو صالح ، فقلت : وكيف كان عمله؟ قال : كان فى أيام الحصاد يحمل الزرع إلى الأندر على ناقة له . فإذا كان وقت صلاة الضحى ، أناخ ناقته وحط عنها حملها ، ثم عقلها وحل إزاره وأخذ فى الصلاة حتى يصلى ما كان يصلى قبل ذلك . ثم يرجع لناقته ، فهكذا العمل فى الحلال . إنما هو ما لم يضر بعمل الآخرة .

أحسب أن الأمثلة السابقة كافية لإيضاح الصورة التى أردنا أن نضعها لذلك المجتمع الذى وضع لنفسه سيرة يحافظ عليها كما يحافظ على بقية ما أوصى به الإسلام . ويحاسب أفراده على صغار الأمور وكبارها بلا هوادة ولا تلطف.

وعندما يتأمل القارىء الكريم جميع الصوَر السابقة التى طبق فيها حكم الهجران على عدد من الأفراد والجماعات يجد أن أكثرها إنما أوقع على ترك الفضائل والمستحسنات . وليس فيها ما أوقع على ارتكاب الكبائر والمحرمات ، اللهم إلا ما أسند إلى قبيلة مغراوة من تطفيف الكيل .

ويكفى هذا دليلا على مقدار ما كانوا عليه من خلق ودين . ومن قوة فى الإلزام والالتزام بما جاءت به الشريعة السمحة الغراء ، إما فى نصوصها الثابتة أو ما نقل عن المقتدى بهم فى خير القرون ، أو ما اتفق عليه المسلمون ورأوه صلاحاً .

الإباضية مع جيرانهم

عندما نطلق كلمة الإباضية فى هذه الحلقة فإنما نعنى بها إباضية الجزائر فى أغلب الأحوال . والإباضية فى الجزائر قد عاشوا فى مبدأ الأمر منتشرين فى كافة القطر الجزائرى ثم انحازوا إلى أرض الجنوب واعتصموا بالواحات والصحراء ثم انتهى بهم الأمر إلى أن تقلصوا من جميع الأماكن التى كانوا يعمرونها وانحصروا فى وارجلان ووادى ميزاب .

ولا شك أن جيران الإباضية . فى الفترات الوسطى إنما كانوا فى بعض الجهات دولا وإمارات ، وفى أخرى مغامرين وطلاب حكم ، أو بداة يعيشون على النسق الذى اعتاده بنو هلال وبنو سليم من الغارة والنهب والسلب والقتل ، أما جيرانهم فى الفترات الأخيرة حين انحصروا فى وارجلان ووادى ميزاب فقد كانوا من أولئك الضاربين فى الصحراء ، يعيشون مع الأنعام يتنقلون بها من واد إلى واد .

وعندما كنت أراجع ما لدى من مصادر لاستخراج الصورة التى كان عليها الإباضية بين جيرانهم كنت أعد سؤالا وجهته إلى كل من الشيخين الفاضلين أبى اليقظان إبراهيم وباكلى عبد الرحمن وقد تفضل كل من الشيخين فأجابنى عن سؤالى على انفراد .

ويسرنى أن أضع أولا بين يدى القارىء الكريم الصورة التى وضعها العلامة الفاضل شيخنا أبو اليقظان . قال رحمه الله : « إن حالة الإباضية مع جيرانهم من المسلمين تختلف باختلاف الميادين التى يعيش هؤلاء وهؤلاء فيها وهى - طبعاً - تبع للظروف السائدة فى كل ميدان ، ففى ميدان الاقتصاد تمر بين

الفريقين أزمات فيها كثير من المرارة والتشاكس ربما تؤدى إلى اغتيال ونهب وسلب وسرقة ، بينما جيرانهم ـ الإباضية ـ يقفون فى سائر الأحوال موقف دفاع . وعند دفع العدوان ينكفون عن الشر حسب مبادىء سلفهم الصالحين الإباضية الأولين ، وفى ميدان الاجتماع كذلك تنشأ أحياناً أزمات حادة قد يثيرها الاستعمار أو بعض المتعصبين ضد الإباضية من الطعن فى مذهبهم أو فى أفراد منهم بارزين فتنشأ عن ذلك ردود فعل هنا أو هناك ربما تتسم بانحراف أقلام المدافعين . وقد اشتدت هذه الأزمات النفسية فى أواخر القرن التاسع عشر المسيحى وأوائل القرن العشرين . عندما تكالب الاستعمار على بلاد الإسلام فيسلط المسلمين بعضهم على بعض ، ويقف هو موقف المتفرج الساخر ، وهو يقضى مآربه من الوطن بمنجاة من أبنائه آمناً أن يكيلوا له ضربة بمثلها . وقد برز فى ميدان الدفاع المحامى المدره فى هذا الباب السيد الحاج عيسى بن قاسم خريج الشيخ طفيش ، وبرز من الكتب فى هذا الميدان كتاب الشيخ طفيش « إن لم تعرف الإباضية يا جزائرى » وكتاب « القول المتين » للشيخ قاسم الشماخى وكتاب « المسلك المحمود » للشيخ سعيد التعاريتى الجربى وأمثالها ، لا رد الله ذلك العهد » .

هذا ما قاله شيخنا أبو اليقظان حفظه الله ورعاه أما شيخنا باكلى عبد الرحمن فقد صور تلك الحالة صورة مؤلمة بما فيها من واقع مرير ، وقد ردّ ذلك إلى تمسك الإباضية الشديد بتعاليم الدين وحرصهم عليه وسكناهم فى مدن متحضرين أو شبه متحضرين بينما كان جيرانهم على غير ذلك ، فقد كان الجيران فى بعض العصور الأولى من بعض الفرق التى تستحل دماء وأموال مخالفيهم فكانوا بذلك لا يعفون عن اختلاس أموال الإباضية ولا عن إراقة دمائهم وبعد أن انقرضت تلك الطوائف التى كانت تبيح ماده

وأموال مخالفيها بدين وعقيدة ابتلى الإباضية هناك بجيران يحترفون الغارة ويعيشون على النهب والسلب . فهم لا ينفكون يهجمون على قرى الإباضية الآمنة أو يتعرضون لقوافلهم فتذهب بسبب ذلك أموال وتزهق أرواح . وإلى القارىء الكريم جانباً من الصورة التى وضعها الأديب العالم الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن عمر حفظه الله ورعاه :

« أما جيرانهم فيحيون حياة بدائية طبيعية ، لا نظام فيها ولا قواعد ، ليس لهم رادع من عقل ، ولا وازع من دين ، فحياتهم على عمومها حياة فوضى ونهب وقطع طريق ، يضاف إلى ذلك ما تأصل فيهم من أحقاد متوارثة وعنصرية عريقة فى جهل مطبق قاتم ، وكثرة تضر ولا تنفع ، فالإباضية معهم دائماً فى خوف ، فى عراك ، عرضة لغاراتهم المتعاقبة ، فى دفاع ، فى مداراة ، وضع لا يطاق ولا تستقيم معه الحياة ، يتحتم على من ابتلى به أن يفكر فيما يلطفه ويقى به شروره ، فاتخذوا لذلك الوسائل الآتية :

١ ـ اتخذوا من بعض تلك القبائل أحلافاً يستعينون بهم على دفع اعتداء القبائل الأخرى .

٢ ـ فتحوا أسواقهم فى وجوههم فسهلوا لهم المعاملات التجارية وتبادل المصالح على طرق المقايضة ، يجلبون محصول البادية من أغنام وألبان وسمن وإقط وصوف وشعر ووبر وجلود وحطب وأعشاب وغيرها . فيبادلونهم ثياباً وحبوباً وتموراً وغيرها من حاصلات الحضر .

٣ ـ يحسنون إلى محاويجهم وضعفائهم بالصدقات المتنوعة ، وتجد نساؤهم مجالا لبيع الأطباق والأوطاب والكساكس وغيرها ، ويأخذن بدلا من ذلك دقيقاً وقمحاً وتمراً وثياباً لهن ولأولادهن .

ويستخدمون أبناءهم عمالا فى المزارع يضاف إلى ذلك كله أن الإباضية اتخذوا الشتاء موسماً لتوزيع أوقاف المقابر نظراً لعطلة أغلب السكان عن العمل وشدة احتياجهم أيام البرد. فترى جموع الأعراب أخذوا نصيبهم منها. وأن الواحد منهم لينا له أحياناً ما يكفيه قوتاً لكامل أسبوعه. أى حتى يعاد توزيع الصدقات إذا كان مقتصداً.

٤ ـ يتخذ الإباضية الأغنام يودعونها عندهم فيستفيد منها الطرفان وقد يبعدها المودعة عنده ويدعى موتها أو فقدها فتبقى له.

٥ ـ يهادنونهم ويمونونهم ويضيفونهم كلما حلوا بالبلد.

٦ ـ ظهر بعض الأغنياء الأسخياء فى البلد عم إحسانهم من يؤم قراهم من أى عرش كان سيما رؤساؤهم، فكان لهذا الإحسان العام أثره المحسوس فى إزالة السخائم من الصدور وكان بمثابة درع حصين يقى سكان الوطن من غارات بعض القبائل، وكثيراً ما يجرّ لهم أصدقاء، وأنصاراً. ولاغرابة فالإحسان يستعبد الإنسان».

هذا جانب من الصورة التى وضعها شيخنا باكلى عبد الرحمن للإباضية وجيرانهم فى الجزائر. وهى بلا شك إنما تصور حياة الميزابيين مع جيرانهم فى عصور الانحطاط والجهل، من القرون الثلاثة الأخيرة، وليست هذه المضايقة مقصورة على الإباضية فى الجزائر وإنما هى صورة وجدت فى كثير من القرى والمدن المنفردة فى الواحات وغيرها والتى يعيش بجوارها بعض القبائل المتبدية التى يغلب عليها الجهل بالإسلام وأهله وأحكامه. فكانت لا تعرف مصادر الرزق الحلال ولا تهمها المصادر التى يأتيها منها المال، بل إنها لتعد التغلب على قوم آخرين وابتزاز أموالهم من المفاخر التى يتمدح بها الأقوياء.

ولعل مما يوضح فهم أولئك الناس لمصادر الرزق هى القصة التى كان يقصها علىّ أحد الشيوخ المسنين من جيراننا قال :

كان فلان ـ لشخص سماه ـ شيخا هِمًّا تجاوز التسعين ، وهو من بعض القبائل الضاربة حول الجبل وكان شيخاً لقبيلة كذا ـ وذكر اسم القبيلة ـ وهو صاحب أغنام وإبل كثيرة ، وكان لا يفتأ يغير على غيره من القبائل الغافلة فيأخذ منهم أموالهم ويضيفها إلى ماله ، فلما كبر وعجز أعلن التوبة وأدى فريضة الحج وجلب معه سبحة أنيقة لا تفارق أصابعه وقد كف عن مباشرة الغارة وإنما كان يجلس فى خيمة تنصب له وراء الحى ، وكانت أصابعه لا تكف عن الحركة وشفتاه لا تكف عن التمتمة بالتسبيح وكان له عدد من الأولاد الأقوياء الأشداء رباهم على خلقه وأسلوبه فى الحياة فكان الواحد منهم ينطلق فيغير على بعض الأحياء أو المنازل ويقتطع منهم الماشية فيأتى بها إلى حيهم ولا يدخلها إلى مالهم حتى يعرضها على أبيه فيقف الولد فى رهبة ومهابة أمام الشيخ الوقور وهو منصرف عنه إلى التمتمة والتسبيح حتى إذا أتم العدد أو الورد التفت إليه وقال له فى صرامة وشدة : من أين أتيت بهذا المال ؟ فيقول الولد : مررت على غنم كان رعاتها نياماً فأخذت منها هذا ولم ينتبهوا . فيقول الشيخ التائب : إنهم باعوا أموالهم بالنوم سألت عنها الإمام فقال هى حلال ، اخلطها بالمال . ثم تتحرك أصابع الشيخ وشفتاه من جديد وينصرف عن الولد الذى أضاف إلى مالهم الحلال مالا حلالا آخر .

فإذا قال الولد اقتطعتها منهم وهربت فلم يلحقوا بى يجيبه الشيخ : لقد باعوها بالضعف سألت الإمام فقال : هى حلال . وإذا قال الولد وقعت

بينى وبينهم معركة قتلت منهم أو جرحت ثم نجوت بهذا المال ، يجيب الشيخ : إنهم باعوها بالخوف وأنه سأل الإمام فقال هى حلال .

وهكذا كلما ذكر الولد سبباً يبرره الوالد القائب وأخبر أنه سأل الإمام عن ذلك فأجابه بأنه حلال ، ثم أمره بحفظ المال المسروق أو المغصوب .

هذه القصة سواء كانت واقعية أو كانت خيالية تدل على تصور أولئك الناس لمعنى الحلال والحرام . واستساغتهم للحصول عليه بأى وسيلة ، والرجل القائب منهم والذى لا ينفك عن التسبيح ، وذكر الله لا يرى بأساً أن يأكل مما يجىء عن طريق الغصب لأن أصحابه فى نظره قد باعوه بالعجز أو الكسل أو الخوف ، ولا مما يجىء عن طريق السرقة لأن أصحابه فى نظره باعوه بالنوم أو بالغفلة وعدم الاعتناء ، أو بغير ذلك من الأسباب .

ولقد كنت أستبعد أن يقع مثل ذلك من أناس ينتمون إلى الإسلام ويفخرون بأنهم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتنفرج شفاههم عن ذكر الله فى كل مقام ، ولكن الزمن برهن لى على أنه قد يقع ذلك وأكثر من ذلك . وأن الإحساس الدينى بإثم الجريمة قد يضعف حتى يتجاوز الناس فيه حد المقارفة إلى حد الاستحلال ، وحد الاستحلال إلى حد الافتخار والتمدح والإعجاب .

وقد يبدأ الأمر بالتجاوز عن أشياء يخيل لمرتكبها أنها بسيطة وربما موهت بشبه يقبلها التفكير الساذج والإيمان السطحى ، ثم لا تفتأ النفوس تعتادها حتى تصبح وسيلة من وسائل الحياة يعسر الاستغناء عنها .

والطريقة التى ذكرتها آنفاً كانت وسيلة من وسائل الحياة فى البادية

فى عهود الجاهلية وسواء فى ذلك بلاد العرب وبلاد البربر وغيرهما من البلدان التى تعيش فى نفس الظروف فلما جاء الإسلام توقفت الأيدى المؤمنة عن التصرف فى أموال الناس ودمائهم إلا بحقها ، ثم جعل للحقوق حدوداً قائمة بينة واضحة . وقف الناس عندها والتزموها .

وكان وقوف بعض الأيدى عن القيام بأعمال الظلم إنما هو نتيجة لخوفها من العقاب الرادع الذى جعله الإسلام جزاء للمعتدين ، وكانت بعض الأيدى تحن إلى ما نشأت عليه وتعارفته وافتخرت به فى جاهليتها ، فلما انحرف الحكام عن إقامة دين الله وعطلوا حدود الله من جهة ثم إنهم هم أنفسهم استباحوا أموال الناس ودمائهم وأعراضهم من جهة أخرى . ثم قامت دعوات باسم الدين أو المذهب تبيح دماء وأموال مخالفيها وأحياناً حتى أعراضهم ، سارعت تلك الأيدى التى غلها الخوف من تطبيق الإسلام إلى تطبيق ما عرفته وعادت إلى ما اعتادت عليه من عيشة الجاهلية . بدعوى الانتقام أو عقوبة المخالفين فى الرأى أو فى المذهب ثم لم يلبث هذا التعليل واعتباره وسيلة التحليل أن اختفى وأصبح القيام بالغارة وسلب المال وسيلة من وسائل العيش كما كان فى عهود الجاهلية . وأصبحت أغلب الواحات والمدن المتناثرة والقرى الواقعة فى الأطراف والأحياء الضعيفة أو قليلة العدد هى مقصد المهاجمين ومنتجع الغاصبين المعتدين .

وقد أخذت وارجلان وميزاب حظيهما الوافرين من هذه المصائب وفى هذه العهود الأخيرة اختفت هذه الظواهر وساد الأمن وأصبح المسلمون من البداة يحسون بالرباط الأخوى الذى يربطهم ببقية المسلمين وعرف الناس أجمعون أن تلك الأحوال التى كنا نصفها أحوال لا يرضى عنها دين ولا قانون ولا خلق ولا ضمير ولا يستسيغها عقل ولا منطق وإنما هى نزوة من نزوات الشهوة والعاطفة العمياء تتحركان فى غفلة من العقل والضمير .

العلاقة بين الإباضية فى المغرب الإسلامى

من الأسئلة التى وجهت إلى الشيخين الفاضلين أبى اليقظان وباكلى السؤال الآتى :

ما هى علاقة إباضية الجزائر بإخوانهم فى نفوسة وجربة ، فاتفقا فى معنى الجواب وإن اختلفا فى أسلوب العرض وقد رأيت إفادة للقارىء الكريم أن أنقـــل أهم ما ورد فى الرسالتين . قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان رحمه الله :

« إن العلاقة بينهم كانت طيبة للغاية القصوى بعد عمارة الوادى فبمجرد استقرارهم فى الوادى بقراهم الخمس ، توافدت إليهم وفود ـ كما أشرنا إليهم آنفا ـ من نفوسة ، وجربة ، ووارجلان ، رجال من أهل العلم والرأى والصلاح والتقوى لأداء رسالة العلم والدين والخلق والمصاهرة فكانت عائلات كثيرة تنسب إلى الآن ـ لآل نالوت ـ مثلا فى غارادية ، أو آل هارون فيها : وآل الطرميسى كآل تيريشين فى يزقن ، أو آل هارون الجلالى فى العطف ، وآل الشيخ عمى سعيد بن على من جربة فى غارداية وآل ثمينة وآل امتياز فى يزقن من ورقلة ، وآل ويرو بمليكة بجربة ، كما ستعرفه قريباً إن شاء الله . وكما كانت نفوسة وآل بارون بالأخص بجربة . وكان علماؤهم فى هذه البلاد يتبادلون الزيارات ومواكب تلاميذهم يتوافدون لاغتراف العلم والمعرفة فبعضهم بالمراسلات والقصائد والخطب العلمية والأدبية ، وما كان بينهم وبين الشيخ عبد الله البارونى وقطب الأئمة والشيخ سليمان البارونى شائع ذائع كما سجلته دواوينهم وزيارتهم وآخرها زيارة قطب الأئمة الشيخ طفيش

والشيخ الحاج قاسم بن بالحاج لجبل نفوسة فى عهد قبل الأخير أضف إلى ذلك زيارات الشيخ سليمان باشا الباروني مراراً للوادى بعد تخرجه مع زملائه عن قطب الأئمة الشيخ طفيش .

ولاتنس زيارة الإمام محمد بن زكرياء الباروني وتعلمه عن الشيخ أبى إسماعيل مهدى بن إسماعيل المليكى فى غضون ٩٦١ هـ ، كما ذكر عن نفسه فى سير الشماخى رحمه الله وكان الإمام أبو زكرياء أثناء ذلك عضواً من بين أعضاء مجلس عمى سعيد كما تشهد بذلك اتفاقات مجلسهم الشهيرة بالموانع العامة .

وبالجملة كانت الإباضية فى الشمال الإفريقى عائلة واحدة متشابكة الأوشاج مترابطة الأوصال .

كما كانت الحال فى الترابط والانسجام بين جربة ونفوسة تعلماً وثقافة وتزاوراً ومصاهرة كما بين الباروني وجربة من جهة وبين آل مليكة فى ميزاب وجربة من جهة أخرى » .

وبعد سطور يقول :

« وأما ما كان من جهة التبادل الثقافى بين الإباضية فى شمال أفريقيا فحدث عن البحر ولاحرج ناهيك به قوة ومتانة فى علاقة الثقافة بين هذه الأقطار ما كان فى وادى ميزاب من اعتماده على كتب نفوسة العلمية الدينية فى مختلف الطبقات ، فخزائنهم مملوءة بكتب نفوسة ومجالات أقلامهم فى كتب نفوسة وحلق تدريسهم من مؤلفات جربة ونفوسة ، وقرى ميزاب جلها حافلة بدور الغرباء من تلامذة جربة ونفوسة وعليها أوقاف مؤبدة لتغذية هذه الدورة سائر العصور . فهى تؤدى مهماتها على الوجه الأكمل ، ونجد أن جربة ونفوسة تذكر فتشكر ، كما حدثنا تاريخ السلف الماجد بذلك

فى الخمسين الثانية من القرن العاشر قيل إن أهل وادى ميزاب رأوا أن البلاد إلى فناء واضمحلال إذا لم تتدارك بعلماء فطاحل من إخوانهم الإباضية من جربة ونفوسة فأرسلوا يستغيثون إلى إخوانهم أن يتداركوا أمرهم برجال من أولى العلم الغزير والدين فأرسلوا إليهم من هؤلاء ثلاثة :

الشيخ عمى سعيد بن على الخيرى الجربى من جربة إلى غارداية .

والشيخ بالحاج محمد بن سعيد ذلك المصلح الكبير إلى يزقن من نفوسة .

والشيخ دحمان من نفوسة إلى بنورة فقام هؤلاء بمهماتهم فى نشر العلم والدين والخلق الكريم والإصلاح الدينى العام بما أشاع النور والهدى فى الوادى وأزاح ظلمات الجهل والفتن .

وإذا كان فى العهد الأخير هناك فترة فتور فإنما يرجع أمرها للاستعمار الغاشم فإنه لم يفتأ يضع حواجز بينهم وبين إخوانهم المسلمين . كما وضع أمثال ذلك بين الإخوة المسلمين الأشقاء ، فى عموم الشمال الإفريقى كله جميعاً . فها هو ذا قد ارتفع كابوس الاستعمار بفضل ضربات المجاهدين ـ من ليبيا إلى المغرب الأقصى ـ فأصبحنا والحمد لله نتزاور بالسيارات» .

ثم ذكر بعد ذلك بعض المظاهر التى تدل على هذا الترابط يمكن أن نلخصها فى النقاط الآتية :

١ ـ تفرغ بعض الأسر من جهـــة إلى أخرى وقيادتها لحركة التعليم والإصلاح كما وقع من أسرة أبى عبد الله الفرسطائى فى مناطق الإباضية بالجزائر ، وكما وقع من الأسرة البارونية فى جربة ، وكما وقع من أسرة آل ويرو من مليكة فى جربة .

٢ ـ نجدة نفوسة لجربة فى محنتها بغزو الإسبان سنة ٩١٥ .

٣ ـ خدمة القطب رحمه الله لمؤلفات نفوسة وجربة والاستفادة منها وتنسيقها وتنظيمها ثم تقديمه لعدد كبير من المؤلفات استفاد منها الإباضية عموماً واشتمال حلقته الدراسية على أعداد من أبناء نفوسة وجربة تخرج منهم أعلام أمثال سليمان الباروني وعمر العوام .

٤ ـ تعاون رجال الأقطار الثلاثة نفوسة وجربة وميزاب بما فيها وارقلة فى تبادل الثقافة واستنساخ المخطوطات والتعاون على طبع ونشر الكتب العلمية والدينية .

هذا أهم ما فى جواب شيخنا أبى اليقظان رحمه الله وقد لخصت بإيجاز شديد ما عبر عنه بمظاهر العلاقة أما أستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبد الرحمن حفظه الله فقد قال :

« الحق أن العلاقة بين نفوسة وجربة وبين ميزاب كانت متينة على مر أدوار التاريخ ، فلم تنفك الوفود مترددة ذاهبة آئبة من هنا وهنالك إلى أيامنا ، وإن كانت قبل أنشط منها الآن ، والمراسلة لم تفتأ موصولة الحبل ـ وكم للمراسلة من أثر حسن فى تمتين العلاقات وتلقيح الأفكار وحفظ التاريخ .

ولا غرو فالقلم أحد اللسانين ـ بل نجد كثيراً يهاجرون من نفوسة ومن جربة ويستقرون نهائياً فى ميزاب ـ وارجلان قصد إحياء معالم الدين ونشر مبادىء المذهب لاسيما فى فترات التاريخ التى تعم فيها الجهالة ، ويخاف فيها على أهله الانحراف وراء الدعايات المذهبية (غير الإباضية الوهابية) التى ظل علماؤها ينشرونها وتسندهم فى دعوتهم السلطة الزمنية بل تقهر لهم أحياناً من يظهر عليهم بالحجة قهراً .

وكذلك نجد أشخاصاً يسافرون من ميزاب إلى نفوسة وإلى جربة طلباً للعلم حتى إذا امتلأ وطابهم وتأهلوا لقيادة الأمة عادوا إلى موطنهم وتصدوا لإحيائه وإصلاحه كما هو شأن الشيخ يحيى بن صالح الذى ابتدأت منه النهضة العلمية الحديثة بميزاب . وغيره كثيرين وهنـــا نسجل ملاحظة جديرة بالاعتبار : تلك هى أننا نرى أهل نفوسة وجربة يهاجرون إلى ميزاب ويتوطنونه بخلاف أهل ميزاب يسافرون إلى نفوسة وجربة ولا يستقرون فيهما ، بل يأخذون حاجتهم من العلم ثم يعودون . لذلك نجد عائلات أصلها من ميزاب أصلها من نفوسة وجربة ولا نجد فى نفوسة وجربة عائلات أصلها من ميزاب على ما أعلم[1] ، وكأن نفوسة ـ وجربة بالتبعية ـ الغنية بعلمائها ترى انحصار مسئولية المحافظة على المذهب الإباضى فيها ، فكانت لذلك أكثر تضحية وأشد غيرة عليه . ولا جرم فنفوسة لم تزل الحامية الحاضنة للمذهب الإباضى والمجددة لما اندرس من معالمه لما ظهر فيها من أبطال صناديد وعلماء فطاحل عبر القرون .

والحق أنهم عملوا جهدهم لتوحيد التعليم بينهم وقد تبنت نفوسة المسألة فكنت ترى الأشياخ منها يرحلون تارة إلى جربة وأخرى إلى وارجلان

---

(١) من الميزابيين الذين استقروا بجربة الشيخ يوسف المصعبى وممن استقر فى جبل نفوسة أخيراً موسى بن أحمد الفارداوى وقد اشتهر بين الناس باسم الشيخ محمد الميزابى وتوفى فى زوارة ودفن بها . ومنهم عيسى بن حمو الواهج وقد تزوج من الرحيبات وله فيها أولاد وبنات وتوفى بها كما أخبرنى أخيراً أهل المنطقة . وفى بعض نواحى الجبل أملاك تنسب إلى الميزابيين فيقال لها زيتونة الميزابى ونخلة الميزابى وما أشبه ذلك . ولما سألت بعض من توجد بحوزتهم تلك الأملاك لم يعرفوا على التحقيق شيئا وقالوا ربما كانت لأناس من ميزاب أو أن أصلنا من هناك .

وهنا قبر فى إحدى غاباتنا يسمى (قبر الميزابى) ولا نعرف شيئا فوق ذلك ، وهناك قصص تروى عن ميزابيين كانوا فى بعض المناطق ولـكنها خرجت الآن عن نطاق التاريخ إلى نطاق القصص إذا لم يظهر ما يوضح معالمها .

وأحياناً إلى ميزاب كما قلنا سابقاً ثم نرى فى حالات أخرى تلاميذ من مواطن الإباضية المختلفة تجتمع على عالم واحد ويتلقون ثقافة واحدة كما فعل أبو زكرياء يحيى بن أبى زكرياء أحد تلاميذ الشيخ أبى مساكن عامر بن على الشماخى فقد كان ساد فى زمانه واجتمع عليه طلبة من نفوسة وجربة وذمر ويفرن والمغرب فكان همزة وصل بين الأصحاب هنا وهناك .

وكما هو شأن العلماء الثلاثة الذين وفدوا من جربة إنجاداً لميزاب الذى يحتاج مجتمعه وقتئذ إلى تثقيف وإصلاح . وقد تأتى لهم ذلك فكانت لحركتهم ثمرة مباركة لا نزال نتمتع بها إلى يومنا[1] .

ومعلوم أن البربر يخضعون غالباً وينقادون إلى من يرد عليهم من الخارج أكثر مما يطاوعون من بالداخل . والعلماء الثلاثة هم :

الشيخ أبو عثمان سعيد بن على الخيرى الجربى ، والشيخ بالحاج والشيخ دحمان فكان الأول من نصيب غارداية والثانى من نصيب يسجن ، والثالث من نصيب بونورة .

ولما رق حبل العلم هنالك توافدت طلبته منها على القطب طفيش ثم على تلاميذه بعده ، وأخيراً اختلفت بعثات على رئيس النهضة العلمية الحديثة ، الشيخ بيوض حفظه الله ولا تزال » .

هذا ما قاله الشيخان إجابة عن السؤال السابق وفيه مقنع . بقى لى أن

---

(١) هذا الكلام من شيخنا باكلى يؤيد ما أشرت إليه فى بعض الفصول من أن حركة النهضة أو اليقظة أو الانطلاقة لهذا الشعب تبدأ من القرن التاسع وتستمر متواصلة مترابطة وإن كان يتاح لها من حين إلى حين يد قوية تدفعها إلى الأمام فى ثبات وسرعة فتكون حركتها أوضح وأظهر .

أشير أن حركة المد والجزر العلمية والإصلاحية بين هذه الأطراف كانت مستمرة متواصلة أحياناً يزدهر العلم فيها جميعاً ويسودها الهدوء والاستقرار فتجرى بينهم زيارات المودة والإخوة وصلة الأرحـــام وأحياناً تضيق الحياة فى بعضها ـ فى بعض جوانبها ـ فيـكون الغوث لها من باقيها وفى جميع الأحوال كانت جربة ـ بموقعها المتوسط ـ قلب الحركة وقد حظيت نفوسة فى هذا العصر بزيارات متعددة فردية وجماعية كان أهمها على الإطلاق زيارات الإمام أبى اسحاق وزيارة الإمام بيوض ولا تزال أصداء تلك الزيارتين ترن فى الأسماع .

مواقف العزابة فى كفاح الباطل

كفاح الباطل فى شتى صوره ومظاهره وألوانه : كفاح الرذيلة ، كفاح الظلم ، كفاح البدعة .

كان هذا الموضوع من المواضيع التى أردت أن أكتب فيها لأنه يعطى صورة من الصور التى أحرص على تقديمها إلى القارىء الكريم فى هـذا الكتاب ، ورأيت أن أستعين بالأستاذ الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن فوجهت إليه سؤالا فى الموضوع ، وقد أتانى الرد فأتى على جميع ما فى نفسى وزاد عليه ، ولذلك فقد رأيت أن أكتبه بنصه وأكتفى به فإلى القارىء الكريم ما قاله شيخنا حفظه الله ورعاه وأمده بالهناء والعافية :

« حياة العزابة كلها كفاح ونضال وخدمة للجانب الروحى فى الأمة : تصحيح عقيدتها ، وتثقيفها فى دينها ، وبعثها على صالح العمل ، وصرفها عن فاسده وعن الانغماس فى الرذائل والموبقات ، والقيام عنها بعدة فروض كفائية لو تركت مرسلة ومهملة لاختل نظام الأمة وهلكت بتضييعها . أجل إنهم ينقطعون إلى إرشاد الأمة للصالح العام ودعوتها إلى المحافظة على آدابها العامة ومقاومة الظلم والرذيلة والبدعة فى شتى صورها وأشكالها ، لا تكاد تعدو هذه الميادين يوماً . وتقوم بكل ذلك تطوعاً ، وابتغاء ماعند الله : لا يريدون جزاء ولا شكوراً ، ولا يتقاضون مرتباً من حكومة أو هيئة أو مؤسسة ، ولقدامتحن معدنهم فى هذا الميدان فأبان عن ذهب خالص ، لا زيف فيه ولا دغل ، وأعربوا عن تعلقهم بما عند الله وما عند الله خير وأبقى .

وفعلا قدمت الحكومة ـ وما بالعهد من قدم ـ لبعض أئمة المساجد بميزاب مبلغاً معتبراً من شأنه أن يستهوى العابد الزاهد فرفضه قائلا : « إما أن تتركونى أقوم بهذا الواجب ابتغاء ما عند الله ، وإما أن اعتزل إمامة الصلاة ولا منزلة بين المنزلتين » . ولهذا السر تركت الحكومة الجزائرية أمر أئمة المساجد الإباضيين فى ميزاب حراً ، ولم تعتبرهم من سلك موظفى الأوقاف كما هو شأن غيرهم من الأئمة فى سائر القطر الجزائرى .

والحق أن الضلع الأكبر فى بقاء الجامعة الإباضية فى ميزاب محتفظة بطابعها الحقيق : طابع الدين والخلق الكريم المتين يرجع الفضل فيه إلى هذه المؤسسة الجليلة فهى العقال الذى قيد الأمة عن الانحراف وراء تيار التحلل والتفسخ ، وعن الانحراف عن سواء السبيل ، والحاجز الذى أوقف الجماهير بعيداً عن الاسترسال وراء الشهوات والحظوظ النفسية .

فكم نال أفرادها فى سبيل الاضطلاع بحملها أذى كثير . سجن وتغريم وتعذيب وفتنة وإذلال وإهانة . فلم يصدهم شىء من ذلك عن أداء رسالتهم نصرة للدين ونصحاً لله ولرسوله ﴿ **فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين** ﴾[1] .

فإذا لم تكن ثمة حياة أحلى لدى القائمين بدين الله من مصارعة الباطل (وياما أحلى الشقاء فى سبيل تنغيص الظالمين) وإذا كان لا يهنأ بال القاسطين ما رأوا الحق يشق طريقه نحو هدفه ، وأنصاره يزدادون فى إقراره ونشره ثباتاً ونشاطاً .

فإن حياة العزابة لا تكون إلا حياة صراع مستمر ضد الباطل فى شتى

---

(١) آل عمران : ١٤٦

صوره وألوانه، وإن تاريخها ليطفح بقضايا كانت ميداناً للصراع العنيف بين الحق والباطل نذكر منها على سبيل النموذج المسائل الآتية :

١ — (فى كفاح البدع) مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة إلغاء ميراث المرأة[1] على عادة الجاهلية وحسبما يجرى به العمل الآن فى بعض الجهات ، عدم احتجاب المرأة عن حميها .

أثارت العزابة ضدها حملات عنيفة اضطربت لها أركان البلاد وعصفت عواصفها مدة طويلة وظل العزابة يبينون فيها وجه الحق ويدعون إلى ترك مألوف العادات التى تتصادم مع الشرع وإن استصعبت النفوس مفارقتها فإن فى الصبر على ما يكرهون خيراً كثيراً ، ثم ما فتئوا يبشرون وينذرون ويقرعون ويربتون حتى فهم الناس وجه الحق وعاد إليهم صوابهم فانتصر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

٢ — (فى كفاح الرذيلة) تطهير المدن من أعشاش الخنا وحارات البغاء التى ركزتها قوة الظلم والكفر بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان فصمد المسجد يصك الأسماع بزواجره وقوارعه ، ويزلزل القلوب . بحججه وبراهينه ، ويوقظ العقل بحكمته وإقناعه ، وما عتم مع السلطة الزمنية فى زعزع ورخاء ، وجذب وإرخاء ، ووعد ووعيد ، وترقيق وتهديد ، حتى اجتثت شجرة الفساد الخبيثة من فوق الأرض ما لها من قرار ، واختفى شبح تلك المناظر الفظيعة عن العيون ، وانغلق باب حرية الفساد والتهتك فى وجوه الفساق الشهوانيين الذين لا يبالون بانتشار الرذيلة وفساد الأجيال الصاعدة ـ وكذلك مسألة الخمور بيعاً وشراباً ومسألة القمار وانتشار حريقه .

---

(١) راجع ما كتبته عنها فى فصل (لا يا اخى) .

فقد كانت مقاومة المسجد لهذه الآفات الاجتماعية وردها الراتب . وكانت له صولات وجولات فى موضوعها فى حين لآخر لدى المناسبات .

٣ — (وفى كفاح الظلم) مسألة التجنيد الإجبارى الذى دامت حربها أكثر من جيل مع الحكومة الفرنسية من سنة ١٩١٢ إلى أن ألغتها أيام الحرب العالمية نهائياً أى حوالى سنة ١٩٤٣ ، مسألة المكس ، مسألة استصفاء مقبرة الميزابيين القديمة بقسطنطينية ومحاولة تحويلها إلى طريق عامة إلى غير ذلك.

ولعلى أعطيك صورة صادقة — لها كل مغزاها — إذا شرحت لك موقفاً من مواقفها البطولية وأساليب المقاومة التى اتخذتها إزاء قضية من قضايا الرذيلة وقعت فى بعض مدن ميزاب فحاولت سلطة الظلم انتهاز فرصتها لتتخذها ذريعة للنيل من هذه المؤسسة الجليلة التى وقفت كالشجرة فى حلقها والتنكيل بالقائمين بها قتلا للروح الدينية فى الأمة فلغيت فيها مصرعها بعد حرب دامت ما يقرب من خمس سنوات ، ومن صارع الحق صرع » .

ويذكر بعد هذا خلاصة لتلك القضية التى أشار إليها وفى آخرها يقول: « تنبيه : لقد أفردت القضية برسالة خاصة تبلغ صفحاتها نحو مائة ، شرحت فيها أدوارها وكل ما يتصل بها . إنها لتشتمل على معلومات قيمة لا يستغنى عنها طالب الحقيقة تعطيه صورة رائعة للمسجد وسلطانه فى ميزاب » .

هذا ما أجابنى به الأستاذ الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن وقد رأيت أن أنقله للقارىء الكريم بنصه ما عدا القضية الأخيرة التى استشهد بها فقد فضلت أن أثير شوق القارىء إليها ، وأرجو الله تبارك وتعالى أن ييسر لأستاذنا الكبير الطرق ويتيح له نشر تلك الرسالة القيمة أو القصة الشيقة أو القضية الهامة . ليجدها القارىء كاملة غير مبتورة ، أو لعله يتيح لدار الدعوة بنالوت شرف نشرها وهو مشكور فى الحالتين .

فتن متواليـــة

عاشت منطقة الواحات المتكونة من بلاد أريغ ووارجلان وسوف وقصطيلية فترة طويلة تعانى من الفتن المتوالية التى ما تتخلص من إحداها حتى تثور أخرى ، وكانت الهجمات لا تنفك توجه اليوم هنا وغداً هناك ، وكانت الطرق تكاد تكون مقطوعة ، والقوافل التى تربط بين البلاد اقتصادياً بأنواع البضائع تكاد تتوقف . وكتب التاريخ تذكر عرضاً أنباء الوقائع التى كانت تقع هنا أو هناك بإيجاز حيناً وبإسهاب حيناً آخر .

وفى هذا الفصل سوف نذكر أمثلة من تلك الفتن والغارات والوقائع المؤلمة ليرى القارىء الكريم صورة واضحة لما كانت تعانيه تلك البلاد من محن فى قرون طويلة ومدى الكفاح الذى كافحته من أجل البقاء .

* جاء فى طبقات الدرجينى فى ترجمة أبى العباس أحمد بن محمد بن بكر ما يلى :

« وذكر أنه وقعت فتنة ببلاد أريغ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة » .

وكانت نتيجة هذه الفتنة أن فر العلماء من تلك البلاد فالتجأ أبو العباس إلى أجلو والتجأ أخوه أبو يعقوب يوسف إلى وارجلان .

* ويقص علينا أبو العباس الشماخى أخبار فتنة من تلك الفتن فيقول :

« وذكر أن عنان بن دليم الطرفى نزل بأريغ فحشد عليه أبو العباس مغراوة فردوه ثم نزل ثانية فحشدهم فردوه وهزموه ، وقد قتل من بنى يطوفت ستين رجلا وحمل رؤوسهم فلما هزمهم استنقذ الرؤوس ودفنها ، وأكثر من

معه بنو ورتيزلن ، قيل إنهم قرب ألف . وجمع أيضاً جمعاً عظيما وأراد غدر الشيخ وتبييته ، وأخفى سيره فلم يشعر بهم الشيخ حتى قربوا فوقع إليه الخبر مع جاسوس . ومرى ليلا وقصد أبا العباس فلم يجده وهدم قصره . وجمع عليه أبو العباس بنى ورتيزلن وأهل رأس الوادى فقال له فلفل بن فلنار : هذا رجل غدار فإياك أن تخرج إليه إذا طلب رؤيتك، وقال لقمان لابنه: إياك أن تخالف ناصحاً ولا تجاور فاضحاً ولا تعامل كاشحاً . فطلب عنان رؤية أبى العباس فمنعه الناس أن يخرج إليه . قال الشيخ أبو عبد الله إن أبى من الرجوع فاقتلوه لأن قتل الواحد خير من قتل الجميع . وأفسد عنان النخيل وأفسد الغابة وذلك عام اثنتين وخمسمائه ثم لحقه بعد أن ارتحل ثلاثمائة وثلاثه عشر من بنى ورتيزلن ومعهم غيرهم فهزموه واستردوا ما قدروا عليه وقتلوا من قتلوا .

* ويقص علينا أبو العباس الدرجينى أخبار غارة من الغارات الكثيرة التى كانت تقع فى تلك البلاد . قال الدرجينى وهو يتحدث عن ماكسن ابن الخير :

« وذكر أبو الربيع قال : أغارت غارة من بنى توجين على رأس وادى أريغ فساقت غنمهم فاتبعهم عدة من المشائخ منهم ماكسن وأبو العباس الوليلى وعيسى بن برصوكسن وعبد الله الدمرى فلم يلحقوا بهم إلا عند أحيائهم فلبثوا مدة يستردون حتى استردوا الغنم بجملتها ، وما استردوها إلا وقد نفدت أزوادهم أو كادت . قيل وكان فيهم عجوز مرابطة وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت أن أزوادهم قد نفدت وأن طعام قومها لا يروق أكله تورعاً فرغبت إليهم أن تضع لهم طعاماً ولما وحان وقت صلاة

المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها » . وبعد أسطر يقول الدرجيني : « حتى سألتهم ما تقولون فى قومى هؤلاء إذا أغاروا غارة وغنموا وأخذوا أعطونى زكاة ما أخذوا فهل علىّ من ذلك حرج . فقالوا لها : وأنت إذن على هذه الحالة المذمومة ياعجوز . فانصرفوا ولم يذوقوا طعامها » .

* ويقص علينا الدرجيني أيضاً أحداث قصة مؤلمة فيقول :

« وذكر أن قافلة خرجت من وارجلان من أهل أريغ متوجهين إلى أريغ فلما وصلوا إلى (ان ونودى) يعنى بئراً فازدحموا عليها يستقون حتى اقتتلوا » ويسهب أبو العباس فى ذكر أحداث الواقعة وما نتج عنها من عواقب مؤلمة .

* ويقص علينا الدرجيني بعض أحـــداث فتنة الميورقى فى ترجمة أبى موسى عيسى بن يرصوكسن فيقول :

« ولقد حدثنى رجل يعرف بابن القابلة وَرَدَ توزر سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة وكتب فى خيل يحيى بن إسحاق الميورقى فتوجه بعسكره من أريغ إلى وارجلان أو قال من وارجلان إلى أريغ وهذا أقرب إلى الصحة فنزل (ثالا عيسى) وأراد الأجناد والأعراب أن يطلقوا خيولهم فى الزروع فأنذرهم بعض من معهم ممن عرف قديماً حال الموضع وأهله وحذرهم وقال لهم : هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة صلحاء مساكين يتقى عقوقهم فإياكم وإياهم فمن الجند من تنحى ومنهم من توقف . وقال لهم عمرو كاتب الميورقى : الـكلام هذا سخيف : أمنع فرسى هذا الخصب ، قل لهم فليدعوا على فرسى . وأطلقها فى الزرع ترعى واقتدى به غيره فى هـــذا الضلال والاستخفاف قال ابن القابلة : فوالله ما رفع من هناك إلا رسنها وسرجها

ومات معها سبع وعشرون نفساً . وليس هذا من باب كرامات الأولياء ولكنه من باب استجابة دعوة المظلوم .

* ويذكر الدرجيني في ترجمة عبود بن منار المزاتي بعض تلك الفتن فيقول :

« فبعد ذلك بأيام أغارت عليه غارة للنكار خرج بها رجل فيهم يعرف بمنصور بن مليك فلقوه بمنزله من زريق فدافع عبود عن نفسه وماله وأهله حتى قتل شهيداً رحمة الله عليه » .

* وفي ترجمة أبي محمد اللتي ذكر أبو العباس الدرجيني فتنة من تلك الفتن التي تنشب بسبب الجهل والعصبية البغيضة من الطرفين قال : « وكان أبو محمد بحلقته في (تين زارين) لم تزل بها الحلقة قائمة قد رتبت على أبي محمد لا يخشون أحداً ولا يمسهم أحد . حتى جعل الله لخروجها سبباً . وسبب ذلك فيما كان أبو الربيع ساقه من هذه الحكاية قال :

« كان تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف وأريغ ووارجلان والزاب وقصطيلية قد حلفوا على أبي محمد (بتين زارين) وكانت الفتنة حينئذ بين تكسينت وهبيتهم ومالكيتهم فالوهبية منهم قبيلة يقال لهما بنو يروتن ، والمالكية من عداهم من قبائل بني تكسينت فكانت الفتنة والعزابة منها في أمان لا يخافون مكروهاً ولا يسمعونه ، فقدر بأن حضر بنو يروتن فرقي رجل جاهل ممن شملته الحلقة يقال له توزين من أهل فنطنار فقال لأهل العسكر الحاشدين : اسكتوا وانصتوا . ففعلوا فقال لهم : فلان وفلان وفلان حتى عدد جماعة من أئمتهم ، عليهم اللعنة وسوء الدار فلما سمعوا منه ذلك تركوا القتال واستدعوا شيخاً لهم يقال له مطهره بن

نفاض فأخبروه الخبر . فقال : أسمعتم ذلك حقاً . قالوا : نعم . قال لهم : اخرقوا واسبوا واقتلوا ، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلا وتفرقوا إلى اليوم » .

* ويقص علينا أبو العباس الشماخى فى ترجمة أبى عبد الله محمد بن الخير إحدى تلك النكبات فيقول :

« وذكر الشيخ أظن أبا الربيع ، أن عدو الله حماد بن يلقين لما نزل على كدية مغراوة بجنوده ـ وكانت كثيرة ، وقف رجل صباحاً ليراها وهى تمر عليه متصلة إلى صلاة الظهر من كثرة عددهم فحاصر أهلها وذكر له أن الخير وأخويه رجال صالحون حجاج فناداهم مناديه أن اخرجوا بالأمان ، ونادى الضعفاء ومن لا استطاعة له ، فلم يخرج أحد فقاتلهم محاصراً نحو شهر فما أتاهم مدد فأخذهم قهراً إلا برجاً فيه عبد الله ومسعود أبناء المنصور الورزمارى فقاتلا أياماً المعسكر بأجمعه فقتل مسعود وأضرمت النار إلى البرج فرمى عبد الله بنفسه خارجاً فمضى وامتنع ونجاه الله منهم ، وأخذ حماد ابنه وحمله طمعاً أن يكون كأبيه شجاعة ونجدة وجرأة » .

هذه نماذج من الفتن المتوالية المتتابعة التى كانت تقع هناك ، بل وفى غيرها من بلدان الواحات فكان السكان لا يهنأون بعيش ، ولا ينعمون بسلام ولا يطمئنون إلى أحد ولا إلى مكان بل إن بعضهم ما يكاد يستقر فى مكان حتى تحدث أحداث تدفعه إلى الهجرة والفرار فإذا قصد مكاناً لحقته الفتن والأحداث مرة أخرى . وكثيراً ما كانت تلك الفتن والأحداث تتسبب فى تشتيت أسرة وتفريق عائلة واحدة إلى جهات

مختلفة فيقصد بعض دون وعى ولا تخطيط مكاناً ويقصد الآخرون أيضاً بدون وعى ولا تخطيط ولا اتفاق أمكنة أخرى ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الفتن والحروب التى وقعت فى وادى ميزاب أو فى وارجلان .

فتشتت بذلك أسر ، وقطعت وشائج أرحام . وضاعت نفوس كريمة بين الحل والترحال وهى تلتمس مأوى آمناً تستكن فيه وموطناً يسوده السلام لتستقر بين ربوعه ومغانيه .

إمارات الدفاع

عندما انحرف الحكام عن منهج الإسلام فى الحكم فكر إباضية المغرب الإسلامى فى إقامة إمامة تعود بالأمة إلى المنهج الذى رسمه الإسلام ، وسار عليه الخلفاء الراشدون ، وقليل من الأئمة الذين جاءوا من بعدهم مثل عمر بن عبد العزيز . فقاموا بالتجربة فى ليبيا وأقاموا ثلاث إمامات متعاقبة لم يكتب لإحداهن أن تستقر وتطول فقد وجهت إليها الضربات من كل جهة وجانب ، ولما فشلت التجربة فى ليبيا - وهى بوضعها الجغرافى معبر بين الشرق والغـــرب أعادوا التجربة فى الجزائر فأقاموا الدولة الرستمية . واستطاع أغلب أئمة هذه الدولة أن يعودوا بالحكم إلى ما ألفته الأمة من السير على النهج الإسلامى القويم من الإمامات العادلة ، وبعد ما يقرب من قرن ونصف قضى على تلك الدولة وانقوضت الإمامة فى تاهرت . ومنذ قضى على الدولة الرستمية لم يفكر إباضية المغرب تفكيراً جدياً فى إقامة بناء دولة مرة أخرى . وإنما كانوا يعملون على أن يعيشوا فى أمن وسلام تاركين لغيرهم دنياهم يتهارشون عليها تهارش السباع .

ولكنهم رغم ذلك فقد اضطروا فى كثير من الأحيان أن يبايعوا أمراء سموهم أمراء دفاع . وذلك عندما تبلغهم أخبار عن مهاجمة عدو لهم . أو توقع خطر ينزل عليهم ، فإنهم يتفقون على واحد منهم يبايعونه على أن يقودهم فى معركة الدفاع . فإذا انتهت المعارك وذهب العدو . وأمنت البلاد بطلت البيعة والإمارة تلقائياً فلا يحتاج إلى عزل ولا تنازل بل بانتهاء مهمات الدفاع يصبح الأمير فرداً كسائر الناس .

إنها بيعة تخول الإمام أن يقود الناس إلى الدفاع عن أموالهم وحرماتهم وأنفسهم وأوطانهم ويقيم بينهم وفيهم فى تلك الفترة أحكام الله وحدوده فإذا أمنوا وزال الخطر ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت البيعة من أعناقهم وزالت الإمامة عن إمامهم . ورجعوا تلقائياً إلى الوضع الذى كانوا عليه قبل أن تنجم هذه الحركة .

إن إمارة الدفاع عند الإباضية إمارة مؤقتة تقتضيها ظروف معينة لمجابهة أحداث واقعة أو متوقعة فإذا زالت تلك الظروف زالت الإمارة وهذا التنظيم الاستثنائى يدل على فهم عميق النفس البشرية فإن أى مجموعة من الناس إذا لم تجمعهم قيادة فى عمل من الأعمال فلا شك أن الافتراق واختلاف الآراء سرعان ما يؤدى بهم إلى الفشل .

فإذا بايعوا أميراً يقودهم فى الحرب ، وينظم صفوفهم فى المعركة ويقاتل بهم عدوهم فى صفوف منظمة ، وخطة موحدة وهو فى كل ذلك يقيم الحق بينهم ، كان هذا التنظيم أجدر أن يبعث فيهم القوة والعزة والمنعة ويثير فيهم روح المنافسة والحماس والفداء .

ولقد احتاج الإباضية إلى هذا التنظيم بعد الدولة الرستمية فى كثير من الأحوال وذلك عندما يبلغهم أن معتدياً يريد الهجوم عليهم وابتزاز أموالهم ، وفى الإمكان أن أعرض على القارىء الكريم عدداً من النماذج توضح له هذه الفكرة فى التطبيق العملى عند الإباضية :

١ ـ عندما قتل المعز لدين الله الفاطمى أبا القاسم يزيد بن مخلد فى (الحمة) غيلة وبدون أية جريرة جناها أبو القاسم غضب الإباضية وجاءوا

إلى العلامة أبي خزر يغلا بن أيوب فبايعوه إمام دفاع على أن يقوض أركان الدولة الفاطمية وقبل منهم البيعة وبدأ العمل حتى بعث إليه الفاطمى يعرض الصلح ويتنازل عن حكم المواطن العامرة بالإباضية . واستشار أبو خزر أصحابه فى الموضوع فرفضوا وطلبوا منه الاستمرار فى القتال .

٢ ـ عندما احتل الأسبان أغلب الثغور الإسلامية من المغرب الإسلامى قرروا احتلال جربة فاجتمع أهل جربة وقدموا عليهم أبا زكرياء السمومنى فبايعوه إمام دفاع ، وتقبل منهم البيعة وحارب بهم العدو حتى طرده فى صورة مخزية للعدو مشرفة للإسلام والمسلمين .

٣ ـ فى سنة ١٢٢٦ هـ قرر ابن جلاب الهجوم على وارجلان من تقرت فاستنصر أهل وارجلان بإخوانهم فى وادى ميزاب فجاءتهم النجدة واتفقوا على أن يقدموا عليهم جميعاً الشيخ طباخ داوود بن إبراهيم إمام دفاع . واستطاع الإمام أن يقف أمام العدو وأن يرده فى هزيمة منكرة تحدث عنها شعراء ذلك العصر . وعندما فر العدو وأمنت السبل ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت بيعة الشيخ طباخ عن أعناق الناس وأصبح فى مكانه العادى بين أفراد الأمة .

٤ ـ قرر بعض العربان الهجوم على وادى ميزاب ، وقطع طريق القوافل عنه فاجتمع أهل الوادى وقدموا عليهم الشيخ سليمان بن عيسى اليزقنى إمام دفاع . فقاد جيش الدفاع وأدار المعركة بنظام ، ووقع قتال ، وسقط فى الميدان شهداء ، وانهزم العدو وولى أدباره تاركاً مالا وعتاداً وبعد انجلاء المعركة عاد الإمام إلى مكانه فرداً عادياً إلى الأمة .

٥ ـ نصب محمد أبو شـــوشة نفوذه على جنوب قسنطينة وهجم على

وارجلان فارتكب فيها الأفاعيل وخطر له أن يهجم على وادى ميزاب فسمع أهل الوادى فاستعدوا لذلك وقدموا عليهم الشيخ حمو بن باحمد باكلى إمام دفاع فنظم الصفوف واستنفر الشباب الموجود خارج البلد فرجع وكتب الكتائب واستعد للقاء العدو عند الحدود فلما سمع أبوشوشة بذلك التنظيم وبلغته أخبار الاستعداد خاف العاقبة فأراد الرجوع بشكل لا يسقط هيبته فبعث إليهم رسالة يقول لهم فيها :

« اعلموا أنى أمهلتكم مدة شهر وثلاثة أيام لتقدموا إلىّ طاعتكم ، وتدخلوا تحت سلطانى ، فإذا انتهى الأجل ولم تمتثلوا لأمرى قاتلتكم » .

وقد انتهى الأجل ولا يزالون ينتظرونه ولسان حالهم يقول إن عادت العقرب فالنعل حاضرة .

لقد اقتبست هذه الصور بتصرف من رسالة للعلامة شيخنا أبى اليقظان تحت عنوان « نموذج إمارة الدفاع » .

هذه نماذج من إمارات الدفاع التى عقدها إباضية المغرب فى حالات وقوع خطر ، أو توقع حدوثه . والمتتبع لأحداث التاريخ يرى أن هذه الإمارات المؤقتة كان يقصد منها تنظيم العملية الحربية فى حالات الهجوم أو الدفاع والفارق بينها وبين القيادة الحربية أو الفرق بين إمام الدفاع وقائد القوات المسلحة كما يسمى اليوم أن إمام الدفاع رغم أن إمامته محدودة فإنه يعطى جميع الصلاحيات التى تعطى لخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين بالإضافة إلى قيادة الجيش مدة قيامه بإمامة الدفاع ، فله أن يجرى جميع الأحكام حتى إقامة الحدود ، ولكنه عندما تنتهى الحالة التى نصب من أجلها إماماً للدفاع تسلب منه كل الاختصاصات التى أعطيت له فى تلك الظروف الخاصة .

ولا شك أن هذه الإمامات كانت تعقد لرد عدوان . فعندما يستعد بعض المتسلطين على الحكم لمهاجمة بلد ما وتطير أخباره إلى أصحاب البلد فإن المعتدى عليهم يستعدون هم أيضاً للدفاع عن أنفسهم ويهيئون وسائل المقاومة فيعقدون الإمامة لمن تتوفر فيه شروط القيادة وقد يقتضى منطق الدفاع أن يبدأ بالهجوم على صفوف أو خطوط المعتدى لإيقاع الخلل فى تنظيمه ومفاجأته بما لم يجعل له حساباً .

أما الغارات المفاجئة التى تقوم بها عصابات أو قبائل بقصد الحصول على ما سهل من أموال ثم الفرار بها ، فإنها لا تترك فرصة للتفكير والتنظيم ثم عقد إمارة . وإنما يتلقاها أول من يراها أو يسمع بها ثم يبعث بالصريخ إلى الباقى ، وقد تنتهى تلك الوقائع قبل أن يسمع بها أغلب السكان ، لاسيما إذا كانت تلك الغارات تستهدف قوافل فى الطريق ، أو ماشية فى المراعى ، أو غلالا على أشجارها فى أطراف البساتين ، فتخطف منها ما يتيسر لها اختطافه ، أو اختطاف بعضه ثم تفر تاركة فى أغلب الأحيان قتلى وجرحى منها أو من أصحاب المال المسروق أو منهما معاً . ولذلك فقد كان سكان الواحات مثل وارجلان ووادى ميزاب يتخذون حراساً لغاباتهم فى فصول نضوج الثمار . وكان أولئك الحراس يوزعون مسلحين على مختلف مناطق الغابات والبساتين ، وكثيراً ما تنشب معارك حامية بين أولئك الحراس وبين القائمين بالغارات أو السرقات الذين يتسللون ليلا فى جماعات فيختلسون ويفرون ، وإذا اعترض طريقهم معترض ضربوا وقتلوا .

غير أن هذا النوع من الأحداث داخل فى السرقات العادية التى لا يخلو منها مكان ولا زمان فهى لا تقتضى وجود إمارة خاصة للدفاع . وإنما تستلزم

يقظة وحراسة مستمرة ولذلك فقد جعل له جهاز خاص تتعاون على تكوينه مجالس العشائر تحت إشراف العزابة . والأفراد الذين يتكون منهم هذا الجهاز يسمى (امتصوردان)[1] ولهذا الجهاز نظام كامل مسجل لم أحصل على صورة منه بكل أسف ـ حتى أضع صورة له أعرضها على القارىء الكريم ليتعرف على جانب آخر من جوانب التنظيم فى تلك المنطقة الحية .

(١) لا أعرف المعنى الذى تدل عليه هذه الكلمة ولم أسأل عنه أحداً من الإخوة الجزائريين الذين يستعملونها فإن كان لها لديهم مدلول فذلك هو . وإلا فأعتقد أن تحريفا بسيطا دخل عليها وأن أصلها (أمسيردان) أى المنظفون أو المطهرون وأطلق عليهم ذلك لأنهم ينظفون الغابة أو القرى أو يطهرونها من دنس السرقة على كل حال هو استنتاج خيالى فلا تهتم به .

إباضية الجزائر تحت الحكم العثمانى

عندما دخلت الجزائر تحت الحكم العثمانى كان الإباضية الذين يسكنون بلاد وادى ميزاب ووارجلان يفكرون فى موقفهم تفكيراً عميقاً هل ينضمون تحت لواء هذه الدولة ، أم يحاولون أن يبقوا على الوضع الذى كانوا عليه ـ مستقلين فى جميع شئونهم ـ لا يتبعون دولة أو إمارة ولا يعلنون عن دولة لأنفسهم .

وفكر القوم فيما يبدو تفكيراً طويلا واستعرضوا حالتهم فى ذلك الحين، وقارنوا بين حياتهم تلك وبين الانضواء تحت جناح هذه الدولة المسلمة القوية الجديدة، والاحتماء بها، وما يتوقعون أن يكون لهم فى ذلك من أمن وسلام . ولا شك أن الآراء اختلفت وأن الجدل كان محتوماً وأن اجتماعات كثيرة قد انعقدت لدراسة الموضوع . غير أن ذلك الجدل وتلك الاجتماعات والمناقشات التى جرت فيها والمقارنة بين عهدين أحدهما ماضى معروف والآخر مستقبل مجهول مخوف ، قد أسفرت جميعها على أن جانب دعاة الالتجاء إلى الدولة والاحتماء بها كان أقوى فمالت إليه الأغلبية وأيدته العناصر التى بيدها الحل والعقد .

فقررت الاتصال بالدولة العثمانية والاتفاق معها قبل أن تتحرك هى نفسها للاستيلاء .

وقد تم ذلك فعلا فذهب وفد ـ مخول بصلاحيات كاملة للاتفاق ـ إلى الجزائر العاصمة ، وقد استطاع ذلك الوفد أن يعقد مع الدولة الحاكمة اتفاقية تشتمل على عدة بنود لعل أهمها أن تسمح للإباضية أن يزاولوا أعمالهم الحرة

فى كل المدن والبلدان التى تقع تحت نفوذ الدولة العثمانية . وأن تتعهد الدولة العثمانية بحمايتهم أفراداً وجماعات فى بلدانهم وفى جميع بلادها على أن يدفعوا لها خراجاً سنوياً معيناً حددته المعاهدة .

وقد تم الاتفاق على المعاهدة وأصبح الإباضية فى الجزائر تحت النفوذ العثمانى لكنه نفوذ شكلى لأنه لا شىء يمثل الدولة العثمانية فى بلاد الإباضية وحتى الخراج أو الضمان المتفق عليه بينهم فإنهم هم الذين يقولون جمعه بأنفسهم ثم يوصلونه إلى الحكومة دون أن تتكلف تعباً ودون أن تطأ قدماها أىّ جزء من تربتهم ، ولم تحاول تركيا رغم العهد الطويل الذى بقيت فيه أن تغير من بند الحماية إلا ما حاوله أحد ولاتها من ضم وادى ميزاب إلى ولاية وهران فاعترضوا ولم تنجح المحاولة كما سنشرحها فيما يأتى فى هذا الفصل، وفى هذا الموضوع لم أرد أن أعتمد على ما لدى من مصادر فقط وإنما رجعت إلى أهل الشان فوجهت سؤالا إلى الشيخين الكبيرين الفاضلين أبى اليقظان إبراهيم . وباكلى عبد الرحمن فأجابنى كلاهما على حدة .

أما نص السؤال فهو كالآتى : ـ

« ما هى حالة إباضية الجزائر مع الدولة العثمانية » ؟

وقد كان جواب أستاذنا الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية كما يلى :

« إنها حالة مسالمة وتقدير للوضع الذى كان لهم فى الاقتصاد الجزائرى وكل الطرفين مسالم للآخر ، إلى أن وصل النفوذ التركى فى الأغواط بالجنوب على يد صالح باى ، وعلى يده وقعت مفاوضات بينه وبين أهل وادى ميزاب فى تحديد العلاقات بين الدولة التركية وبين وادى ميزاب على أسس ترمى إلى الاعتراف بوجود ميزاب كما هو ، ومسالمته فى نظمه وآدابه على أن

يدفع مقابل ذلك للدولة التركية اثنى عشر عبداً واثنتى عشرة أمة . وأشياء أخرى فى كل سنة كما فصل ذلك فى كتاب (عثمان باشا) لتوفيق أحمد المدنى ، وعلى هذه الأسس وقعت معاهدة بين فرنسا وميزاب سنة ١٨٥٣ . ومن أبرز العلاقات بين الدولة التركية وميزاب : رسائل وقصائد الشيخ الحاج إبراهيم بيجمان الذى ذكرناه آنفاً يخاطب به ملوك الدولة فيما بين عام ١٢٠٠ وعام ١٢٠٧ كما هو مخلد فى ديوانه المخطوط وكان لها أثر محمود فى أوساط الدولة وبنى ميزاب فى ذلك الحين » .

هذا ما قاله شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ورضى عنه ويبدو أن بعض الأحداث التاريخية الهامة قد اختلطت عليه وهو يكتب جواب السؤال فلا شك أن الاتفاقية المبرمة بين الإباضية والدولة العثمانية إنما أبرمت بين وفد مكلف من الوالى العام أو (الداى) فى الجزائر العاصمة أما صالح هذا فهو عامل من عمال الداى وطمحت نفسه أن يضم وادى ميزاب إلى الأرض التى تقع تحت حمايته وبنو ميزاب فى ذلك الحين يتمتعون باتفاقية حماية لاخضوع كامل فلما سمعوا بنواياه قاموا لذلك وقعدوا وأجروا عدة مفاوضات مع الوالى العام للجزائر لامع صالح باى ـ وتم لهم ما أرادوا . وسوف يتضح لك الموقف كله بعد قراءة الفصل كله .

أما أستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبد الرحمن فقد كان جوابه كما يلى :

« كان الإباضية فى ميزاب إلى عهد الدولة التركية منعزلين فى وطنهم لا يكادون يتصلون بخارج محيطهم اللهم إلا ما كان من زيارة بعض شيوخ دعوتهم وما إلى ذلك من انتقالات جزئية مستقلين فيه استقلالا تاماً . حتى استقرت قدم الدولة التركية بالجزائر وأخذ نطاق استقلالها يتسع ، وجدوا

أنفسهم بين شدق ضيغم ، ووضعهم على خطر إن لم يحتاطوا لمستقبلهم ، وسارعوا إلى المفاهمة مع هذه القوة الزاحفة مفاهمة يحفظون معها ذاتيتهم واستقلالهم ، وإلا عصفت بهم رياح الحوادث ويا ما أكثرها ولا سيما وهم أقلية .

وفعلا اتصلوا بالدولة التركية ، وقرروا تبعيتهم إليها تبعية اسمية فقط أو بعبارة أوضح، دخلوا تحت حمايتها مقابل خراج سنوى يدفعونه لها ، ولهم مقابل ذلك حق الاتجار والاكتساب فى مدنها وحماية أشخاصهم وأموالهم فى أسفارهم عبر بلادها . فهـــل أمنتهم فى أسفارهم وحمتهم من قطاع الطرق حقاً ؟

كلا فالذى يقصه علينا التاريخ أن الدولة التركية لم تعر إلى هذه الناحية أدنى التفاتة . بل ألقت الحبل على الغارب ، وتركتهم عرضة للنهب والسلب والترويع ، فلا يخرجون من بلادهم أو إليها إلا قوافل مسلحين استعداداً للطوارىء وتحت حماية بعض أبطال ذلك الزمن منهم الذين يستأجرونهم لذلك مخافة أن يذهبوا هم وأموالهم وأولادهم ضحية، فكم من جماعة سافرت إلى وطنها بعد أن أمضت سنتين فى الجمع والاكتساب تخرج عليهم جماعة مجرمة من قطاع الطرق فتجردهم من كل ما ملكت أيديهم ، وتتركهم عراة صفر الأكف » .

وبعد كلام طويل بليغ قال :

« فلما أخضع الباى صالح جبال عمور والصحارى وماحواليها حدثته نفسه بتحويل تبعية ميزاب إليه ، ففاوض فى الشـأن باى الجزائر حسن الدولاتلى ، فقيل إنه أجاب طلبه نظراً لإخلاصه وحسن بلائه ، بيد أن

الميزابيين ثارت ثائرتهم ، واضطربوا اضطراباً شديداً لما يعلمون من سوء نواياه كما يصرح بذلك جوابهم إلى باى الجزائر الذى أعلنوا فيه فى شمم رفضهم لتبعيتهم للباى صالح ، فإما أن يبقيهم على الحالة الأولى من تبعيتهم للسلطة المركزية ، وإلا فليسرحوا أبناء ميزاب الذين دخلوا بلادهم بأمان وأرض الله واسعة الفضاء .

حرر الكتاب نيابة عن ميزاب بأسره الشيخ الحاج إبراهيم بيجمان أحد تلاميذ الشيخ عبد العزيز صاحب النيل ، وأحد شيوخ يسجن بعده ومما جاء فى الكتاب :

« ... من المسلمين عليك جموع بنى ميزاب المشتكين إليك ما نزل بهم مما لا طاقة لهم به ، وذلك أنهم سمعوا أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد صاحب الولاية الشرقية ، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة من الأسلاف والأجداد ...». إلى أن قال :

« فإن قلت لابد من هذا فإنا لأمر الله طائعون ، ولكلامك سامعون فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضائعها بالإحسان أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان وأرض الله واسعة ما دام الزمان .

عجبت لمن يعيش بغير عز وأرض الله واسعة براها »

والجواب أرسل إلى السيد إبراهيم بن صالح الأمين ويدخله إليه بواسطته على يد صهره الحاج على بن عبد اللطيف ، مؤرخ بتاريخ ذى القعدة عام ١٢٠٦ هجرية ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بعدول باى الجزائر عن عزمه بسبب

وقوع سوء مفاهمة بينه وبين الباى صالح أدى إلى مصرع هذا الأخير ، ومن أبطن سريرة ألبسه الله رداءها » .

فيما نقلته عن الشيخين الفاضلين يرى القارىء الكريم أنهما لم يتحدثا فى رسالتيهما عن إباضية وارجلان ، وإنما قصر حديثيهما على إباضية وادى ميزاب ، ويبـــدو أن حالة وادى ميزاب فى ذلك الحين تختلف عن حالة وارجلان بعض الاختلاف . فبينما كان سكان ميزاب عند دخول الأتراك إلى جنوب الجزائر كلهم على المذهب الإباضى اللهم غير أسر قليلة جاءت تبعاً لوسائل العيش . والتماساً للعمل ولا تلبث أن ترتحل ، وكانت بلاد ميزاب مستقله استقلالا تاماً عن أى نفوذ ويتولى الحكم فيها مجلس العزابة بأنظمته المعروفة فى شئونه الداخلية والخارجية . وبينما كانت ميزاب على هذا الوضع المستقل نوعاً ما كانت وارجلان على وضع يخالف هذا الوضع بعض المخالفة فقد كان سكان وارجلان فى ذلك الحين يتكونون من الإباضـية والمـالـكية كما أنهم كانوا خاضعين لأمير يجرى عليهم الأحكام على طريقة أمراء الطوائف والشيوخ المستبدين وإن كان الإباضية من سكان وارجلان يرجعون فى أمورهم الدينية والاجتماعية إلى مجلس العزابة فى أكثر الأحوال .

ولـكن يبدو من أحداث التاريخ ووقائعه أن سلطة مجلس العزابة فى تلك الفترة كانت محدودة جداً .

ونظراً لطبيعة هـذه الفوارق بين إباضية وادي ميزاب وإباضية

وارجلان . اختلف موقف الدولة العثمانية منهما . فبينما ألحقت جميع البلاد الجزائرية وعنابة وارجلان لحكمها وجعلت عليها ولاة ينفذون سياستها ويطبقون أحكامها ويشرفون على إدارتها ويجمعون لها الضرائب ويتولون رعاية جميع الشئون فى مختلف ميادين الحياة . فبينما يقفون هذا الموقف فى وارجلان وفى بقية القطر الجزائرى تراهم فى وادى ميزاب يقتصرون على عقد اتفاق حماية ، يعترف فيها الشعب الميزابى بسيادة الدولة العثمانية ويدفع لها خراجاً سنوياً معيناً ، وتتعهد الدولة مقابل ذلك بحمايتهم فى وطنهم وخارج وطنهم ، أما شئون ميزاب الداخلية فى المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية فرجعها إلى مجلس العزابة .

هذا الفارق بين طبيعة الحياة فى وارجلان ، وطبيعة الحياة فى وادى ميزاب هو ما ترك الشيخين يتحدثان عن علاقة ميزاب فقط بالدولة العثمانية تاركين الحديث عن وارجلان لغيرهم .

والواقع أنه إذا استثنينا وضع ميزاب فإن أسلوب الحكم العثمانى يتشابه فى أغلب البلاد الإسلامية . لأن المسلمين فى جميع الأقطار الإسلامية قد خضعوا للدولة العثمانية واطمأنوا إليها ورأوا فيها دولة الخلافة التى تحافظ على تراث الإسلام ومجده ، ما عدا أفراداً كانوا يثورون هنا وهناك لأسباب مختلفة أغلبها شخصية سعياً وراء الوصول إلى كراسى الحكم . وقد بادلت الدولة العثمانية المسلمين جميعاً ، حباً بحب ، واطمئناناً باطمئنان ، وأعدت نفسها لتشغل مكان الدولة الإسلامية الكبرى التى تقود البشرية وتحافظ على الحضارة الإسلامية السابقة مضيفة إليها ما تستطيعه من حضارة وأمجاد ، وقد حملت مشعل الإسلام وأوصلته إلى ما لم يصل إليه من بلاد الشرق الأقصى وشمال أوروبا الشرقية .

غير أن وضعها تجاه الدول الصليبية الحاقدة الحانقة التى كانت تحاول بكل ما عندها من وسائل أن تقضى على الإسلام وتستولى على البلاد التى ينتشر فيها ، عرقلت مساعيها الإصلاحية العمرانية الداخلية .

إن الموقف المتعنت من دول أوروبا الصليبية الحاقدة الحانقة جعلها توجه أكمل عنايتها إلى الناحية الحربية ، وتهتم بالعواصم والثغور للمحافظة عليها ، وتهمل أمور الدواخل فى أغلب الأحيان نوعاً من الإهمال اللهم فى فترات قصيرة ، وبجهود بعض الولاة المصلحين بفطرتهم ودينهم . وعلى هذا الوضع كان الجنوب الجزائرى وهذه الصورة التى عرضناها على القارىء الكريم لا تمنعنا أن نقول كلمة الحق فى تلك الدولة التى رفعت منار الإسلام زمناً غير قصير ، ونشرته فى كثير من أنحاء الأرض ، وكالت لأعدائه والحاقدين عليه صفعات مؤلمة لا يزال صداها يرن فوق أثباج البحر الأبيض المتوسط .

ولقد كان دورها فى التاريخ الإسلامى العام لا يقل عن دور الدولتين الأموية والعباسية بحال من الأحوال . إن الذى تدل عليه المصادر التاريخية التى بين أيدينا من المراسلات الجارية بين مركز الدولة وأطرافها يدل على أن لها عناية واهتماماً بالتعرف على شكاوى الأهالى ودراستها والاستجابة لها وقبول المعقول من طلباتهم وأحسب أن هذا القدر كاف فى الدلالة على حسن نية الدولة ورعايتها لمصلحة الأمة ولا مطمع فى أكثر من ذلك من أية دولة مدنية لا تلتزم الإسلام منهجاً وحكماً .

وأياً ما كان الأمر فقد كان الإباضية فى الجزائر كغيرهم من المسلمين الداخلين تحت نفوذ الدولة العثمانية يرون أنهـــا فى ذلك الحين تمثل قوة الإسلام وتحمل لواءه ، وأن سلاطينها هم الخلفاء الذين يجب أن يسمع لهم

ويطاع أمرهم ، وهم لذلك راضون عن الدولة مطيعون لها وإن نقموا بعض الأحكام من بعض الأفراد أو بعض التصرف من أحد الولاة أو الموظفين وهم لا يطمعون منها فى أكثر من ذلك لأنها دولة مستبدة وليست خلافة رشيدة وهذا الموقف هو ما كانت عليه جميع دول الخلافة فى العهد الإسلامى باستثناء الخلافة الرشيدة أو خلافة عمر بن عبد العزيز أو بعض الدول التى قامت فى جهات العالم الإسلامى ولم يتح لها أن تحكمه كله وإنما حكمت جانباً منه لفترة قصيرة أو طويلة . وقد كانت الصورة العامة كما يلى :

اعتراف من الناس بنظام الدولة القائم ، واعتزاز به ، وسمع له وطاعة ونقد لأعمال الحكام ، وسخط على الولاة الظالمين والموظفين الذين لا يراعون أحكام الله ولا يسيرون على منهاجه القويم واحترام وتقديس لشخص الخليفة مع النقد الحر لكل ما ومن يتصل به .

كان الإباضية يعيشون فى كل من ميزاب ووارجلان فى نطاق ضيق محصور على ما تنتجه أراضيهم ، وعلى حرف يدوية بسيطة ، قد يكون أهمها صناعة الصوف الذى تشتغل به المرأة ، فلما دخلت تركيا إلى الجزائر وأظهرت أنها ستؤمن جميع السبل[1] ، وتعهدت للميزابيين بحمايتهم انطلق أولئك الناس المجدون ، حيث يجدون متسعاً للكفاح فى سبيل الرزق الحلال . وذهبت جماعات منهم فى بادىء الأمر إلى الجزائر لاحتراف التجارة . نجحت تجربة تلك الجماعات نجاحاً باهراً ، شجع الكثيرين على الاقتداء بأولئك

(١) يقول أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن أن الدولة العثمانية لم تف للإباضية بما تعهدت به . ولم تؤمن السبل لهم ولا لغيرهم فقد كانت مشغولة بمصارعة القرصنة على أمواج البحر الأبيض المتوسط ولذلك فقد انصرف الإباضية عن وعودها لهم واعتمدوا على أنفسهم واتخذوا وسائلهم الخاصة لحماية أنفسهم وأموالهم أثناء أسفارهم المتوالية .

المغامرين الأولين . وتبعهم آخرون ، وهكذا نشط القوم ودخلوا أغلب المدن الجزائرية ، واستطاعوا ـ فى مدة قصير ـ بما أوتوا من خبرة من التجارب ، وجد فى العمل ، وأمانة فى المعاملة . أن يمسكوا بمقاليد التجارة فى كل الجزائر ، وبالتالى فى الاقتصاد الجزائرى العام بعد أن أمسكته به منهم تلك الأيدى الأمينة المجدة الحريصة . فاحترمتهم الدولة لذلك ، وكانت تحسب لهم حساباً أى حساب وعرفوا هم أيضاً منزلتهم فى الاقتصاد الجزائرى ، وفى نفس الدولة ، فكانوا يدلون عليها بذلك ويهددونها بالانسحاب من هذا الميدان إذا لم ترع حقوقهم ، وتستجيب لمطالبهم ، وتفى لهم بما تعهدت به ويدل على ذلك دلالة واضحة كثير من المراسلات التى جرت بينهم ومن آخرها وأوضحها فى هذا المقام ما جاء فى رسالة الحاج إبراهيم بيجمان :

« فإن قلت لابد من هذا ، فإنا لأمر الله طائعون ، ولكلامك سامعون ، فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضائعها بالإحسان ، أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان ، وأرض الله واسعة ما دام الزمان » .

بهذه اللهجة الشديدة يجابه ممثل ميزاب والى الجزائر . ويهدده بالانسحاب من ميدان التجارة . ولا شك أن هذا الوالى وغيره من ولاة الدولة العثمانية فى الجزائر ، ليسوا هم الذين دعوا الميزابيين إلى التجارة فى الجزائر ، أو فى غيرها من المدن ، ولكنهم كانوا يعرفون الفرق فى الحالة الاقتصادية الجزائرية ومداخيل الحكومة منها قبل أن يتولى الميزابيون وأهل وارجلان تصريف التجارة فيها وبعد ذلك . ومعرفة الوالى بحقيقة ذلك دعته أن يتغاضى عن الخشونة والتحدى الظاهر فى الرسالة رغم أن آذان الولاة فى تلك العصور لم تتعود سماع الكلام الخشن ولو كان حقاً ولأن الوالى يعرف أنه لو أغفل

مطالب أولئك القوم وترك لهم أن يخرجوا على تلك الصورة الفاضحة فإن الاقتصاد الجزائرى سوف ينهار أو ربما يترنح فقط ، وأن أسواقها سوف ترتبك . ولا شك أن مداخيل الدولة ترتبك من وراء ذلك على الأقل فترة ما حتى يجد ذلك الاقتصاد الأيادى البديلة التى تمسكه وتسير به ، كما يعرفون أن التجار من بنى مصعب وأهل وارجلان الذين مهروا فى التجارة وعرفوا أدق أسرارها وأخفى أساليبها لا يلبثون أن يفتحوا لأنفسهم مجالات جديدة، فى أماكن جديدة ، تدر عليهم أرباحاً لا تقل عن الأولى وترفع اقتصاد بلاد أخرى ربما كان بين ولاتها وهؤلاء الولاة تحاسد ومنافسة . وإن كانت جميعاً ترتبط باسم الدولة العثمانية . ولذلك فقد تردد الوالى أمام لهجتهم المتحدية القاسية ثم لان . واستجاب لرغباتهم ووافق على مطالبهم .

على أن موقف الدولة التركية من الإباضية فى الجزائر وفى غير الجزائر كان يبدو فيه كثير من التقدير والاحترام والتفهم ومحاولة الإنصاف يدل على ذلك تلك المجالس العلمية التى كان يعقدها ولاة الدولة التركية لمناقشة بعض المسائل والمشاكل والشكاوى فيدعون إلى حضورها بعض علماء الإباضية المعروفين فيمن يدعى من علماء المذاهب الأخرى وكذلك مجالس المناظرة والمناقشة فى المسائل الخلافية بين المذاهب التى تثـــار هنا وهناك بطريقة تتيح الفرصة لكل أهل مذهب أن يكشفوا عن آراء مذهبهم بما لديهم من حجة وبيان .

وقد كان العلامة أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبى ـ فى نظر الدولة التركية ـ يمثل العالم والزعيم الإباضى فى المغرب الإسلامى ولذلك فقد كان طيلة عصره ممثلا لرأى الإباضية فى جميع المشاكل من هذا النوع التى

أثيرت فى الجزائر وتونس وليبيا . وكانت له فى جميع ذلك مواقف مشرفة عند جميع الأطراف وله فى هذا الميدان رسائل وتقارير قيمة . كما أن الدوله التركية كانت تنظر إلى الإباضية نظرتها إلى أى فرقة إسلامية أخرى نظرة طبيعية مجردة نزيهة لا عصبية فيها ولا ترفع ولا تحامل .

ولعل السبب فى ذلك أن الشخصيات العلمية التى اتصلت بالأتراك فى مختلف بلاد الإباضية كانت تمثل شهامة العالم المسلم ، وترفعه عن الطمع وعدم تملقه لهيبة السلطة ، وقوته فى إعلان كلمة الحق والإصداع به .

كما قد يكون أولئك العلماء الذين احتكوا بمجالس الحكم قد أوضحوا فى تلك المجالس أن المذهب الإباضى من أصح المذاهب الإسلامية استناداً وارتباطاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة، وأن أتباعه من أحرص المسلمين على أن يكونوا مثلا عليا فى كل مجتمع عاشوا فيه . كما قد يكون الولاة الأتراك قد تحققوا خلال تعاملهم مع الإباضية فى الجزائر من صدق القوم فى معاملتهم وعهودهم والتزامهم للأمانة ، وحرصهم على الشرف والنظافة والاستقامة . ومحاسبتهم لأنفسهم ولقومهم قبل أن يحاسبهم الغير . أو يبدو منهم ما يخالف دين الله ، أو قانون الدولة ، أو عرف الناس .

ولعله يحسن بى أن أختم هذا الفصل بما يلى :

قال السيد عمر بن عيسى بن إبراهيم فى كتابه بيان حقيقة عن التجنيد الإجبارى صفحة ٤٣ ما يأتى :

« فى عهد الاستيلاء التركى على الجزائر تكاثر عدد التجار الميزابيين

المنتشرين بشمال أفريقيا بسبب نمو أمتهم ، فاحتاجوا لحماية تجارتهم من طرف ولاة الأمور العثمانيين ، فوقع اتفاق بينهم وبين ميزاب — بحيث أن الميزابيين يدفعون للأتراك جباية سنوية مقدارها اثنا عشر عبداً واثنتا عشرة أمة ، ولا يتدخل أرباب السلطة البتة فى أمورهم . بل تركوهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم على مقتضى مذهبهم الإباضى وعوائدهم وأخلاقهم الخاصة بهم ، وهكذا كانت حالة ميزاب عند احتلال الجزائر فى سنة ١٨٣٠ » .